التوحيد

صيانة الأعراض

مجلة ▪ إسلامية ▪ ثقافية ▪ شهرية ● تصدر عن جماعة أنصار السنة المحمدية ● العدد ٥١٠ - السنة الثالثة والأربعون - جمادى الآخرة ١٤٣٥ هـ الثمن جنيهان



الحمد لله .. هذا ديننا

- والديك ضعهما في عينيك
- الأسباب الجالبة للرزق
- القلب القاسي

السلام عليكم

أخلاقُ الكبار

كان لأبي حنيفة جارٌ من الكيالين مُغْرم بشرب الخمر، وكان أبو حنيفة يُحْيي الليل بالقيام، ويُحْيِيه جاره الكيال بشرب الخمر والغناء قائلاً:

اضاعوني وأيَّ فتًى اضاعوا
ليوم كريهةٍ وسَدادِ ثَغْرِ

يعني: أضاعه الناس فصار خمَّارًا لا يصلح للحرب ولا لحراسة الثغور والحدود، فأخذته الشُّرطةُ ليلةً فوقع في الحبس، وفقد أبو حنيفة صوت هذا الخَمَّار، فسأل عنه فعرف أنه في الحبس، فلما أصبح أبو حنيفة لبس وخرج إلى الأمير فاستأذن، وكان لا يأتي إلى الأمراء إلا نادرًا، فأقبل عليه الأمير بوجهه وقال: أمرٌ مهم جاء بك يا أبا حنيفة، قال: نعم؛ أصلح الله الأمير؛ جارٌ لي من الكيالين أخذته الشرطة فهو في حبسك، فأمر الأمير بإطلاق كل مَنْ أُخِذ في تلك الليلة ؛ إكرامًا لأبي حنيفة، فأقبل الكيَّال على أبي حنيفة مُتَشَكِّرًا له، فلما رآه أبو حنيفة قال له مازحًا ومُعَرِّضًا ومُذَكِّرًا له بغنائه لعله يتركه: أضعناك يا فَتَى، فقال الفَتَى: لا والله؛ ولكنك بَرَرْتَ وحَفظْتَ!!

ما أحوج الدعاة والمصلحين إلى أخلاق الأنبياء والصالحين؛ ليرغب الناس في هذا الدين.

التحرير

ثمن النسخة

مصر ٢٠٠ قرشاً ، السعودية ٦ ريالات ، الامارات ٦ درهم ، الكويت ٥٠٠ فلس، المغرب دولار أمريكي ، الاردن ٥٠٠ فلس، قطر٦ ريالات ، عمان نصف ريال عماني ، أمريكا ٢ دولار ، أوروبا ٢ يورو

الاشتراك السنوي

١- في الداخل٣٠ جنيهاً بحوالة فورية باسم مجلة التوحيد ـ على مكتب بريد عابدين مع إرسال صورة الحوالة الفورية على فاكس مجلة التوحيد ومرفق بها الاسم والعنوان ورقم التليفون

٢- في الخارج٢٥ دولاراً أو ١٠٠ ريال سعودى أو مايعادلهما.

ترسل القيمة بسويفت أو بحوالة بنكية أو شيك على بنك فيصل الاسلامى فرع القاهرة ـ باسم مجلة التوحيد ـ أنصار السنة «حساب رقم / ١٩١٥٩٠»

بشرى سارة

تعلن إدارة المجلة عن رغبتها في تفعيل التواصل بينها وبين القراء في كل ما يتعلق بالأمور الشرعية لعرضها على لجنة الفتوى ونشرها بالمجلة على البريد الإلكتروني التالي : q.tawheed@yahoo.com

التحرير
٨ شارع قولة عابدين ـ القاهرة
ت:٢٣٩٣٦٥١٧ ـ فاكس :٢٣٩٣٠٦٦٢
البريد الإلكتروني
MGTAWHEED@HOTMAIL.COM
رئيس التحرير:
GSHATEM@HOTMAIL.COM
قسم التوزيع والاشتراكات
ت:٢٣٩٣٦٥١٧
ISHTRAK.TAWHEED@YAHOO.COM
المركز العام:
هاتف :٢٣٩١٥٥٧٦-٢٣٩١٥٤٥٦
WWW.ANSARALSONNA.COM

السنة الثالثة والأربعون / العدد: ٥١٠ - جمادى الآخرة ١٤٣٥

في هذا العدد



افتتاحية العدد

تذكير الأخلاء بأهمية الدعاء

الحلقة الثانية

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله مجيب من دعاه، ومعطي من طلب منه ورجاه، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه، ومن سلك سبيله واقتفى أثره إلى يوم الدين، وبعدُ:

فقد ذكرت في اللقاء الماضي لمحة يسيرة عن فضل الدعاء ومكانته، ورأيت أن الموضوع بحاجة إلى مزيد بسط وبيان في بعض المسائل المتعلقة بالدعاء، فأحببت أن أتعرض لها في هذا اللقاء؛ تتميمًا للفائدة، ورغبة أن أنال دعوة صادقة صالحة.

ومن هذه المسائل ما يلي:

الأولى: حاجة العبد إلى الدعاء:

جميع العباد فقراء إلى الغني الحميد سبحانه، فهو الذي بيده ملكوت كل شيء، وخزائن العالم بأسرها بيديه، والعبد لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، ولو تُرك لنفسه لحظة لهلك وضاع، ولهذا فالعبد في كل لحظة بحاجة إلى ربه ومولاه، ومن هنا أمر الله عباده بدعائه فقال: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) [غافر: ٦٠]، وهذا من عظيم كرم الله وإحسانه بعباده؛ حيث أمرهم بالدعاء، ووعدهم بالاستجابة، وهو سبحانه لا يرد مؤمنًا ناجاه وطلب منه ودعاه، كما في الحديث القدسي الذي يرويه أبو ذر- رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه، وفيه أن الله تبارك وتعالى قال: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا، يا عبادي: كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي: كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي: كلكم عارٍ إلا مَن كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي: إنكم تخطئونَ بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا؛ فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي: لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر». قال مسلم: قال سعيد (وهو أحد رجال سلسلة إسناد الحديث): كان أبو إدريس الخولاني (التابعي الذي رواه عن أبي ذر) إذا حدّث بهذا الحديث جثا على ركبتيه. [مسلم: ٢٥٧٧].

ويظهر من هذا الحديث ضرورة افتقار العبد إلى ربه ومولاه، وأنه لولا الله لهلك جميع العباد، كما يدل الحديث على أن الله يحب من العباد أن يسألوه مصالح دينهم ودنياهم؛ من الطعام والشراب والكسوة، كما يسألونه المغفرة والرحمة والإعانة على الطاعة، وفيه كمال قدرة الله وغناه وعظمته، وأن خزائنه لا تنفد، ولو أعطى كل السائلين في وقت واحد سبحانه جل في علاه، ما أعظم شأنه، وقد صدق في قوله: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) [فاطر: ١٥]، قال ابن كثير: «يخبر تعالى بغناه عما سواه، وبافتقار المخلوقات كلها إليه، وتذللها بين يديه، فقال: «يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله»، أي: هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو تعالى الغني عنهم بالذات، ولهذا قال عز وجل: «والله هو الغني الحميد». أي: هو المتفرد بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله، ويقدّره ويشرعه». [تفسير ابن كثير ٣/٧٤٤].

فيا عباد الله: ارفعوا أكف الضراعة إلى الله، وأنزلوا حاجتكم

وأظهروا فقركم إلى الله جل في علاه، فالدعاء من أعظم مظاهر افتقار العبد إلى الله، وحاجته لربه ومولاه.

المسألة الثانية: أسباب إجابة الدعاء:

سبق القول بأن الله تبارك وتعالى يجيب من دعاه، ويحقق مقصود من طلبه ورجاه، غير أن هناك أسبابًا عظيمة يجب أن يراعيها الداعي كي يقبل الله دعاءه، نذكر منها:

١-إطابة المطعم: كما في الحديث الذي أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه يقول عليه الصلاة والسلام: «إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام، فأنى يُستجاب لذلك». [مسلم: ١٠١٥].

فهذا الحديث العظيم قد اشتمل على سبب عظيم يجب أن يراعى في قبول الدعاء، إلى جانب ذكر موانعه، وأول أمر اشتمل عليه الحديث إطابة المطعم، وهو من الأسباب الرئيسة في قبول الدعاء.

٢- السفر: وكذلك السفر، فهو من موجبات قبول الدعاء، وفي حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاث دعوات مستجابات: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده». [حسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي ج٣/١٥٦].

وإذا طال السفر كان أقرب إلى إجابة الدعاء؛ لأنه مظنة انكسار النفس بسبب طول الغربة عن الأوطان، وتحمل المشاق.

٣- التذلل والتواضع بين يدي العزيز الغفار: وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم كذلك، وقد أجاب ابن عباس رضي الله عنهما من سأله عن استسقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج متبذلاً متواضعًا متضرعًا، حتى أتى المصلى، فلم يخطب خطبتكم هذه، ولكن لم يزل في الدعاء والتضرع والتكبير، وصلى ركعتين كما كان يصلي في العيد». [حسنه الألباني، صحيح سنن الترمذي ١٧٣/١].

٤- رفع الأيدي إلى السماء: وقد جاء في الحديث: (يمد يديه..)، وفي حديث سلمان الفارسي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله حيي كريم، يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفرًا خائبتين». [صححه الألباني، المرجع السابق ١٧٩/٣].

قبول الدعاء متوقف على تحقيق شروطه وانتفاء موانعه:

ويجب أن يعلم الداعي أن قبول الدعاء متوقف على تحقيق شروطه وانتفاء موانعه، وبعض الناس يقول: دعوت كثيرًا دون إجابة؟

والجواب عن ذلك: أن الدعاء سببٌ مقتضٍ لنَيْل المطلوب، ونيل المطلوب له شروط وموانع، فإذا حصلت شروطه وانتفت موانعه تحقق المطلوب وإلا فلا، كما هو الشأن في جميع الأعمال الصالحة، لا تُقبل إلا إذا استوفى المسلم شروطها، وابتعد عن موانع قبولها، والدعاء كذلك. وللإمام ابن القيم رحمه الله كلمات دقيقة حول هذا

الدعاء من أعظم مظاهر افتقار العبد إلى الله وحاجته لربه ومولاه؛ فارفعوا أكفّ الضراعة إليه، وأظهروا فقركم إليه.

المعنى ذاكراً لبعض موانع إجابة الدعاء:

«إن الدعاء من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلف عنه أثره، إما لضعف في نفسه؛ بأن يكون دعاءً لا يحبه الله لما فيه من العدوان، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه، وقت الدعاء، فيكون بمنزلة القوس الرخو جدًا، فإن السهم يخرج منه خروجًا ضعيفًا، وإما لحصول المانع من الإجابة من أكل الحرام والظلم ورَيْن الذنوب على القلوب، واستيلاء الغفلة والشهوات واللهو وغلبتها عليها، كما في مستدرك الحاكم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يقبل دعاءً من قلب غافل لاه». فهذا دواء نافع مزيل للداء، ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوّته، وكذلك أكل الحرام يُبطل قوته ويُضعفها». [الجواب الكافي: ٩].

ومن الموانع أيضاً:

- **الاستعجال:** وقد دل عليه ما جاء في مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل». قيل: يا رسول الله، ما الاستعجال؟ قال: يقول: دعوت، وقد دعوت، فلم أر يستجيب لي، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء». [مسلم: ٢٧٣٥].

فاستعجال الإجابة آفة من الآفات التي تمنع ترتب أثر الدعاء عليه، وينتهي حال الداعي عندئذ إلى ترك الدعاء، وهذا معنى قوله في الحديث: «يستحسر».

- **الدعاء بإثم أو نحو ذلك:** ومن الآفات المانعة من قبول الدعاء دعاء الداعي بإثم أو معصية أو سوءٍ يلحقه أو يلحق غيره، وهذا من حكمة الله تعالى ولطفه بعباده، ولو أنه أجاب العبد في كل ما يريد لترتب على ذلك مفاسد عديدة تلحق بالداعي وغيره، وصدق الله في قوله: (وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) [يونس: ١١]، قال ابن كثير رحمه الله: «يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده، أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم وأموالهم وأولادهم في حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يعلم فيهم عدم القصد بالشر إلى إرادة ذلك، فلهذا لا يستجيب لهم- والحالة هذه- لطفًا ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم، أو لأولادهم بالخير والبركة والنماء». [تفسير ابن كثير ٢/٥٤].

وإذا تحققت الشروط وانتفت الموانع؛ وقع فضل الله على عبده بقبول الدعاء عاجلاً أو آجلاً، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها». قالوا: يا رسول الله، إذًا نكثر؟ قال: الله أكثر. [مسند أحمد ٣/١٨].

وللحافظ ابن حجر رحمه الله كلمات دقيقة حول هذا المعنى يقول فيها: «إن الإجابة تتنوع، فتارة يقع المطلوب بعينه على الفور، وتارة يقع ولكن بغير المطلوب؛ حيث لا يكون في المطلوب

إن قبول الدعاء متوقف على تحقق شروط وانتفاء موانع كسائر الأعمال، فإذا تحققت الشروط وانتفت الموانع وقع فضل الله على عبده .

مصلحة ناجزة، وفي الواقع مصلحة ناجزة أو أصلح منها». [فتح الباري ١١/٣٤٥].

وتتلخص شروط الاستجابة وموانعها في قول الله تعالى: (فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي)؛ فمن استجاب لله تعالى في أمره ونهيه، وصدق بوعده وآمن به فقد تحققت له شروط استجابة الدعاء وانتفت عنه موانع الإجابة، فلن يخلف الله تعالى وعده.

المسألة الثالثة: وجوب اتباع السنة في الدعاء:

من المعلوم- وهذا نؤكد عليه كثيرًا- أن الدعاء حق خالص لله، لا يجوز صرفه إلى غيره، ولا يجيب ويسمع الدعاء إلا الله، ومن قال: لا إله إلا الله، ثم دعا غير الله، فقد هدم إيمانه، وقضى على ما قاله ونفاه.

وكذلك يجب اتباع الهدي النبوي في الدعاء، فالدعاء عبادة، والعبادة مبناها على التوقيف والاتباع.

يقول ابن تيمية رحمه الله: «لا ريب أن الأذكار والدعوات من أفضل العبادات، والعبادات مبناها على التوقيف والاتباع، لا على الهوى والابتداع، فالأدعية والأذكار النبوية هي أفضل ما يتحراه المتحري من الذكر والدعاء، وسالكها على سبيل أمان وسلامة...، وليس لأحد أن يَسُنّ للناس نوعًا من الأذكار والأدعية غير المسنون، ويجعلها عبادة راتبة يواظب الناس عليها، كما يواظبون على الصلوات الخمس، بل هذا ابتداع دينٍ لم يأذن الله به، بخلاف ما يدعو به المرء أحيانًا من غير أن يجعله للناس سنة، وأما اتخاذ ورد غير شرعي واستنان ذكر غير شرعي، فهذا مما يُنْهَى عنه، ومع هذا ففي الأدعية الشرعية والأذكار الشرعية غاية المطالب الصحيحة، ونهاية المقاصد العلية، ولا يُعدل عنها إلى غيرها من الأذكار المحدثة المبتدعة إلا جاهل، أو مفرّط أو معتدٍ). [مجموع الفتاوى ٢٢/٥١٠، ٥١١].

ويستثنى من ذلك دعاء المرء لنفسه، فلا بأس أن يدعو المرء لنفسه بغير المأثور، بشرط ألا يجعل ذلك دينًا لغيره، فقد ورد من الأدلة العامة والخاصة من الكتاب والسنة ما يدل على جواز الدعاء بغير المأثور، وأنه موافق لأصول الشرع وقواعده ونصوصه وعموماته؛ طالما التزم الداعي فيه بآداب الدعاء الشرعية، وإن كان الالتزام بالمأثور أولى وأفضل، فهذا بخلاف الأذكار الشرعية التي هي دين وسنة نبوية.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يهتم بتعليم أصحابه الذكر والدعاء، كما في حديث مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن يقول: اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات». [مسلم: ٥٩٠].

وكان يصوب من يخطئ منهم ولو في لفظ واحد من ألفاظ الذكر والدعاء، كما في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، وقل: اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت، فإن مت مُتَّ على الفطرة، واجعلهم آخر ما تقول، فقلت أستذكرهن: وبرسولك الذي أرسلت، قال: لا ونبيك الذي أرسلت». [البخاري: ٢٤٧، ومسلم: ٢٧١٠].

قال ابن حجر في شرحه للحديث: «وأولى ما قيل في رده صلى الله عليه وسلم على من قال الرسول بدل النبي أن ألفاظ الأذكار توقيفية». [فتح الباري ١١/١١٢].

وقد أحدث الناس في الدعاء بدعًا كثيرًا وأورادًا غير مشروعة، والخير كل الخير في اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، وليحذر الداعي من استعمال آلات الطرب والغناء في الدعاء، فهو بدعة منكرة، يقول فيه الشيخ بكر أبو زيد- رحمه الله-: «وقد أجمع المسلمون على أن هذا من أسوأ أنواع الاعتداء في الذكر والدعاء، وأنه بدعة ضلالة، وعمل محرم قبيح لا يبيح التعبد به مسلم، وأنه من الفتون واتباع الهوى، وإفساد الدين، والصد عن الذكر والدعاء المشروع، ومشاقة لله فيما شرع لعباده، ومعصية لرسوله صلى الله عليه وسلم فيما بلَّغ من وحيه، وخروج على شرعه المطهر). [تصحيح الدعاء: ص٧٦].

والقرآن الكريم مليء بجوامع الدعاء، وفي السنة النبوية ما يكفي ويشفي، فعلى العبد لزوم ما جاء في الكتاب والسنة، ولينته عن الأذكار المحدثة المبتدعة، حتى لا يكون من المعتدين في الدعاء، والله تعالى يقول: (ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ) [الأعراف: ٥٥]، يقول ابن تيمية رحمه الله: «وينبغي للخلق أن يدعو بالأدعية الشرعية التي جاء بها الكتاب والسنة، فإن ذلك لا ريب في فضله وحُسنه، وأنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين وحسن أولئك رفيقًا». [مجموع الفتاوى ١/٣٤٦].

أسأل الله تعالى أن يلهمنا الدعاء، وأن يوفقنا إليه، وأن يحقق الجواب، إن ربي على كل شيء قدير.



أسئلة القراء عن الأحاديث

إعداد/ المحدث
أبو إسحاق الحويني



١- يسأل سائل عن حديث «أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت بالله مؤمنًا حقا. قال: انظر ما تقول؛ فإن لكل قول حقيقة..

قلت: هذا حديث منكر.

أخرجه محمد بن نصر في «تعظيم قدر الصلاة « (٣٦٢) قال: حدثنا محمد بن مقاتل. وأبو عبد الله الماليني محمد بن جعفر بن محمود بن حسان في «أحاديثه» (ق ٣٥ /١- ٢) عن عبد الجبار بن العلاء. والبيهقي في « الشعب « (١٠٥٩٠) عن أبي الصلت الهروي قالوا: ثنا يوسف بن عطية الصفار قال: سمعت ثابت البناني يذكر عن أنس بن مالك قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استقبله شاب من الأنصار. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت بالله مؤمنا حقا. قال: «انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة». قال يا رسول الله: «عزفت نفسي عن الدنيا» فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري، وكأني بعرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة كيف يتزاورون فيها، وأنظر إلى أهل النار كيف يتعاوون فيها. فقال أبصرت فالزم، عبد نوّر الله الإيمان في قلبه. قال: يا رسول الله ادع الله لي بالشهادة، قال: فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنودي يومًا في الخيل وكان أول فارس استُشهد وأول فارس ركب، فبلغ أمه فجاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقالت: أخبرني عن ابني إن يكن في الجنة لم أبك عليه، وإن يك غير ذلك بكيت عليه ما عشت في الدنيا. قال: يا أم الحارث، إنها ليست جنة، ولكنها جنة من جنان، وإن الحارث في الفردوس الأعلى. قال: فرجعت وهي تضحك وتقول بخ بخ لك يا حارثة.

وأخرجه البزار (٦٩٤٨) - البحرً) قال: حدثنا أحمد بن محمد الليثي. والعقيلي في: « الضعفاء « (٤ /٥٥) عن بكر بن خلف قالا: ثنا يوسف بن عطية الصفار بهذا الإسناد إلى قوله: «عبد نور الله قلبه « قال العقيلي: « ليس لهذا الحديث إسناد يثبت « يعني: لأوله، أما آخره فهو ثابت كما حققته في « الفتاوى الحديثية» (٣٤٩)، وعلة هذا الحديث يوسف الصفار هذا؛ فإنه تالف.

وأخرجه أبو القاسم البغوي في « معجم الصحابة « (٢ /٧٥) والبيهقي في: « الشعب « (١٠٥٩١) والطبراني في الكبير(ج٣ /رقم ٣٣٦٧) وعنه أبو نعيم في: « معرفة الصحابة « (٢٠٦٩) عن محمد بن العلاء. وعبد بن حميد في: « المنتخب « (٤٤٥) قالا: حدثنا زيد بن الحباب ثنا ابن لهيعة ثنا خالد بن يزيد السكسكي عن سعيد بن أبي هلال المدني عن محمد بن أبي الجهم عن حارث بن مالك الأنصاري أنه مر برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له يا حارث كيف أصبحت قال: أصبحت مؤمنا حقا، فقال: « انظر ما تقول؛ إن لكل حق حقيقة» قال: « ألست قد عزفت الدنيا عن نفسي، وأظمأت نهاري وأسهرت ليلي، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى

أهل النار يتضاغون فيها، يعني يصيحون. قال: يا حارثة عرفت فالزم. ثلاث مرات.
وإسناده ضعيف جدًا وابن لهيعة ضعيف، ومحمد بن أبي الجهم لا أعلم من حاله شيئًا.
وأخرجه أبو نعيم أيضا (٢٠٧٠) قال: أخبرنا خيثمة بن سليمان إجازة ثنا محمد بن عيسي بن حيان ثنا محمد بن الفضل بن عطية عن غياث بن المسيب عن سليمان بن سعيد بن أبي بردة عن الربيع بن لوط عن الحارث بن مالك بهذا. وسنده ساقط، ومحمد بن الفضل قال: أحمد: حديثه حديث أهل الكذب. وكذبه عمرو بن علي الفلاس، وكذلك ابن أبي شيبة والنسائي، وقال صالح جزرة: يضع الحديث.
وأخرجه ابن الأعرابي في « المعجم « (٢٠٦) والبيهقي في: « الشعب « (١٠٥٩٢).
عن عبد الرزاق وهو في « المصنف « (٢٠١١٤) من طريق صالح بن مسمار وجعفر بن برقان معضلاً.
وكذلك أخرجه ابن المبارك في « الزهد « (٣١٤) عن صالح بن مسمار . وأخرجه ابن أبي شيبة (٤٣/١١) قال: حدثنا ابن نمير ثنا مالك بن مغول عن زبيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكره معضلا.
وأخرجه ابن أبي شيبة أيضًا قال: حدثنا يزيد بن هارون قال: أخبرنا أبو معشر عن محمد بن صالح الأنصاري أن النبي صلى الله عليه وسلم لقي عوف بن مالك فذكر مثله. وإسناده منقطع. فالأمر كما قال العقيلي: ليس يثبت لهذا المتن إسناد. والله أعلم.

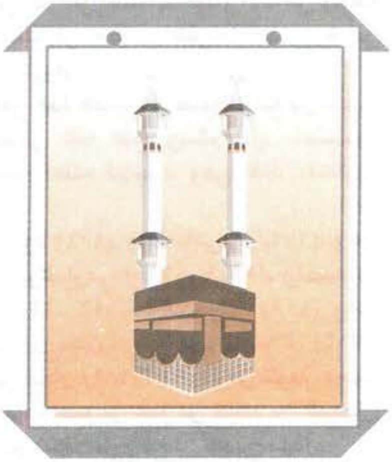
٢- يسأل سائل عن حديث: « لا تزال أمتي على الفطرة ما أسفروا بالفجر».

قلت: هذا حديث منكر.
أخرجه البزار (٨٦٤٨ - البحر) قال: حدثنا محمد بن المثنى. والطبراني في « الأوسط « (٣٦١٩) قال: حدثنا سعيد بن سيار الواسطي، قالا: ثنا عمرو بن عون، قال: نا حفص بن سليمان، عن عبد العزيز بن رفيع، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة مرفوعًا فذكره.
قال البزار: « وهذا الكلام لا يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد، ولا نعلم روي عبد العزيز عن أبي سلمة غير هذا الحديث، وحفص لين الحديث، حدث بأحاديث مناكير، ولكن لما لم نحفظ هذا الحديث إلا من هذا الوجه ذكرناه عنه، وبينا علته.
وقال الطبراني: « لم يرو هذا الحديث عن عبد العزيز بن رفيع إلا حفص بن سليمان، تفرد به عمرو بن عون».
وأخرجه الدارقطني في « الأفراد « (٥٥٦٦ - أطرافه) من طريق عمرو بن عون بهذا الإسناد وقال: « تفرد به عمرو بن عون عن حفص بن سليمان المقرئ، عن عبد العزيز».
قلت: أما عمرو بن عون فثقة حافظ، والآفة من شيخه حفص بن سليمان صاحب القراءة المشهورة عن عاصم، فهو متروك.
والصحيح في هذا الباب هو حديث رافع بن خديج أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أصبحوا بالصبح، فإنه أعظم للأجر». وفي لفظ: «أسفروا بالفجر....... «
أخرجه أبو داود (٤٢٤)، والنسائي (١ /٢٧٢)، وابن ماجه (٦٧٢)، والدارمي (١٢١٨، ١٢١٩)، وأحمد (٣ /٤٦٥ و٤ /١٤٠، ١٤٢)، والحميدي (٤٠٩) وأبو نعيم الفضل بن دكين في « كتاب الصلاة» (٣١٤)، وصححه ابن حبان (١٤٨٩، ١٤٩١) من طريق محمد بن عجلان عن عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان عن محمود بن لبيد، عن رافع بن خديج بهذا.
وهذا إسناد جيد. وقد توبع ابن عجلان. تابعه محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة بهذا. أخرجه الترمذي (١٥٤) والدارمي (١٢١٧) وأحمد (٣ /٤٦٥). وصححه ابن حبان.

٣- ويسأل سائل عن حديث: من علق في مسجد قنديلاً صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يُطفأ ذلك القنديل، ومن بسط فيه حصيرًا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يتقطع ذلك الحصير، ومن أخرج منه قذاة كان له كفلان من الأجر».

قلت: هذا حديث موضوع.
أخرجه ابن حبان في « المجروحين « (٢ /١٠٨) والسهمي في: « تاريخ جرجان « (ص ١٣١)، والرافعي في «أخبار قزوين» (٤ /١٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٣ /١٥٢)، وابن الجوزي في « الواهيات « (٦٨٢) من طريق عاصم بن سليمان الكوزي ثنا برد بن سنان عن مكحول عن الوليد بن العباس عن معاذ بن جبل مرفوعًا.
وهذا سند موضوع.
وعاصم بن سليمان الكوزي ذكره ابن حبان وقال: هو صاحب الحديث: شرب الماء علي الريق يعقد الشحم...
ومن روى مثل هذا كان ممن يروي الموضوعات عن الأثبات لا يحل كتابه حديثه إلا على جهة التعجب: « وقال ابن الجوزي : هذا حديث لا يصح. قال الفلاس: كان عاصم بن سليمان يضع الحديث. وقال النسائي: متروك. وكذبه الدراقطني ووقع في تاريخ جرجان: «ثور بن يزيد» بدل «برد بن سنان».

وإلى لقاء في عدد قادم إن شاء الله.



الأمثال في القرآن

«مثل المكذب بآيات الله تعالى»

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

ففي هذا المقال نتحدث عن مثل آخر من الأمثال في القرآن وهو من سورة الأنعام الآية التاسعة والثلاثون وهي قوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [الأنعام: ٣٩].

المعنى الإجمالي:

قال القاسمي في محاسن التأويل (٢٣٠٩/٦): في قوله تعالى: «وأما الذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات» أي: مثلهم في جهلهم، وعمى فهمهم، وسوء حالهم، كمثل الصم (جمع أصم وهو الذي لا يسمع، والبكم (جمع أبكم وهو الذي لا يتكلم)، وهم مع ذلك في ظلمات لا يبصرون، فكيف يهتدي مثلهم إلى الطريق أو يخرج مما هم فيه؟!

وقد كثر تشبيههم بذلك في التنزيل؛ إعلامًا ببيان كمال عراقتهم في الجهل، وانسداد باب الفهم والتفهيم بالكلية، ثم أشار إلى أنهم من أهل الطبع بقوله: «مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» أي: فهو المتصرف في خلقه بما يشاء، فمن أحب هدايته وفقه بفضله وإحسانه للإيمان، ومن شاء ضلالته تركه على كفره، «ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور». اهـ. القاسمي.

وقال ابن كثير في تفسير الآية: «والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات» أي: مثلهم في جهلهم، وقلة علمهم، وعدم فهمهم، كمثل أصم، وهو الذي لا يسمع، أبكم وهو الذي لا يتكلم، وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق؟!

المعنى التفصيلي:

قال ابن عثيمين في تفسير سورة الأنعام ص٢١٠: قوله: «والذين كذبوا بآياتنا» هذه الجملة معطوفة عطف جمل، أي: قالوا إنها كذب ولم يصدقوا بها، جاءوا للآيات الكونية، وقالوا: هذه سحر، وكما قال الله عز وجل عن قريش: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ) [القمر: ١، ٢]، فكذبوا بالآيات الكونية، وكذبوا كذلك بالآيات الشرعية، ووصفوا الرسل بالكَذَبة وبالشعراء وبالكهنة وبالمجانين وبالمسحورين، وما أشبه ذلك، وهذا تكذيب بالآيات الشرعية.

هؤلاء الذين كذبوا بآيات الله «صم وبكم في الظلمات»، فلهم ثلاثة أحوال:

«صم» بآذانهم لا يسمعون الكتاب سماع انتفاع، فانسد طريق الحق عنهم من جهة السماع.

«وبكم» جمع أبكم وهو الذي لا ينطق فلا ينطقون

بالحق، ولكنهم ينطقون بالباطل.

«في الظلمات» لا يبصرون، الظلمات محيطة بهم من كل جانب؛ لأن «في» تدل على الظرفية، والظرف محيط بمظروفه، فانسدت عليهم أبواب العلم والمعرفة: السمع والبصر والنطق، والعياذ بالله، وفي هذا قال الله عز وجل في سورة البقرة: « صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ».

وقال صديق حسن القنوجي في فتح البيان (٢/ ٣٧٠): « وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا » أي: بالقرآن (صم وبكم) أي لا يسمعون بأسماعهم، ولا ينطقون بألسنتهم، نزلهم بمنزلة مَن لا يسمع ولا ينطق؛ لعدم قبولهم لما ينبغي قبوله من الحجج الواضحة والدلائل الصحيحة.

وقال أبو علي: يجوز أن يكون صممهم وبكمهم في الآخرة.

«في الظلمات» أي في ظلمات الكفر والجهل والحيرة والعناد والتقليد؛ لا يهتدون لشيء مما فيه صلاحهم، والمعنى كائنين في الظلمات التي تمنع من إبصار المبصرات، فضموا إلى الصمم والبكم عدم الانتفاع بالأبصار؛ لتراكم الظلمة عليهم، فكانت حواسهم كالمسلوبة التي لا يُنتفع بها بحال.

وقال الشيخ ابن عثيمين في تفسير قوله تعالى: (مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) [الأنعام: ٣٩]: «من يشأ الله يضلله» الجملة شرطية فعل الشرط «يشأ»، وجوابه «يضلله»، أي: من يشأ الله إضلاله يضلله؛ لأن الأمر أمرُه عز وجل، لا معقِّب لحكمه، ولا اعتراض عليه، ولا يُسأل عما يفعل، فنسأل الله أن يهدينا فيمن هدى.

«يضلله» فيعمى عن الحق ولا يصل إليه.

قوله: « وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ »، ونقدر هنا «ومن يشأ» هدايته «يجعله»، أي: يُصيره على «صراط مستقيم»، أي: لا عوج فيه وهو الإسلام.

قال القرطبي في تفسيره (٦/ ٢٧٢): «من يشأ الله يضلله» دل على أنه شاء ضلال الكافر وأراده لينفذ فيه عدله، ألا ترى أنه قال: «ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم» أي: على دين الإسلام لينفذ فيه فضله، وفيه إبطال لمذهب القدرية، والمشيئة راجعة إلى الذين كذبوا، فمنهم من يضلله، ومنهم من يهديه:

من فوائد الآية:

الفائدة الأولى: بيان حال الذين كذبوا بآيات الله، وأنه لا سبيل إلى هدايتهم؛ لأنهم صم لا يسمعون الحق سماع انتفاع، وكذلك هم في الظلمات، وأنهم لا ينطقون بالحق.

ولو قال قائل: الذين يحرفون الآيات هل يدخلون في قوله تعالى: «والذين كذبوا بآياتنا»؟

والجواب: التحريف بمعنى التأويل، فإذا كان تأويل إنكار فربما يدخلون في هذه الآية، أما إذا كان تأويلاً عن اجتهاد فهم لا يدخلون في هذه الآية، وليسوا بمعاندين، والتأويل يُقبل إذا كان اللفظ يحتمله، وهناك ما يرجح المعنى الآخر، لكن إذا كان لا يحتمله اللفظ فهم معاندون فيشبهون الذين جحدوا، وهل الذين لا يعملون بهذه الآيات يدخلون في الذين كذبوا بآيات الله؟!

الجواب: لا يدخلون، هؤلاء مستكبرون.

الفائدتان الثانية والثالثة: أن من شاء الله هدايته اهتدى، وأن من شاء إضلاله ضل، ويتفرع على هذه الفائدة أن يلجأ الإنسان إلى ربه تبارك وتعالى بطلب الهداية، والاستعاذة من الغواية؛ لأن الأمر بيد الله، فإن قيل: وهل هذه المشيئة مشيئة مجردة بدون حكمة، أو أنها مشيئة مقرونة بالحكمة؟

فالجواب: أنها مشيئة مقرونة بحكمة، وهذا هو المتعين؛ لأن جميع أفعال الله- تبارك وتعالى- وأحكامه كلها مقرونة بالحكمة، انظر في أحكام الله، قال الله تعالى في آية المواريث: (فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) [سورة: ٦٠]، وقال تعالى في الأمور القدرية: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) [الإنسان: ٣٠]، فلا مشيئة مجردة في أفعال الله وأحكامه، بل هي مقرونة بالحكمة.

فإن قيل: وهل هذه الحكمة معلومة للخلق؟

فالجواب: قد تكون معلومة، وهذا- والحمد لله- هو الأكثر، وقد تكون مجهولة لبعض الناس دون بعض، وقد تكون مجهولة لجميع الناس؛ لأنهم لا يحيطون بالله علمًا.

الفائدة الرابعة: أن الصراط هو دين الإسلام مستقيم لا اعوجاج فيه ولا انحراف فيه، ولا شقاء فيه، ويضاف إلى ذلك أنه لا تناقض فيه؛ لأنه لو كان فيه تناقض لم يكن مستقيمًا.

فإن قال قائل: هل للإنسان حُجة على الله إذا أضله وهدى آخرين؟

فالجواب: لا؛ لأن الهداية فضل من الله عز وجل، وفضل الله يؤتيه من يشاء، والإضلال لا بد أن يكون مبنيًا على حال العبد؛ لقوله تعالى: (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) [الصف: ٥]، ولقوله تعالى: (فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ) [المائدة: ٤٩]، فالحاصل أن الله تعالى يضل ويهدي من يشاء لحكمة، ولا بد أن يكون الإضلال من جراء فعل العبد.

انتهت الفوائد من كلام ابن عثيمين تفسير الأنعام ص٢١١.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

باب التفسير

سورة فصلت

الحلقة الخامسة

« وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ » [فصلت: ٣٧- ٤٦].

إعداد د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

من دلائل التوحيد الليل والنهار والشمس والقمر:

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ ومن أياته الدالة على أنه لا إله إلا هو الليل والنهار، والشمس والقمر، فهو سبحانه الذي خلقهن، وهو الذي يسخرهن، ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]، ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ [لقمان: ٢٩]، ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، ولا يستطيع أحد أبدًا أن يغيّر هذا النظام ولا أن يبدله، وذلك أكبر دليل على أن الله الذي خلقهن وسخرهن هو الأحق بالعبادة، وبذلك أقام الخليل إبراهيم عليه السلام الحجة على النمرود، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١- ٧٣].

ولقد ملكت عظمة الشمس والقمر قلوب بعض الناس فعبدوهما من دون الله، فقال الله تعالى لهم: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، فإن كنتم رأيتم الشمس والقمر عظيمتين، فإن عظمتهما

تدل على عظمة خالقهما، فهو أحق بالعبادة منهما، وهذا الذي صرح به الهدهد، حين رأى أهل سبأ يسجدون للشمس من دون الله، كما قال تعالى في قصة سليمان عليه السلام: (وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩) [النمل: ٢٠- ٢٦].

ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: (فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩)، يقول سبحانه: فإن استكبروا عن السجود لله سبحانه وتعالى، وعن إفراده بالعبادة بعد إظهار هذه الأدلة، وإقامة هذه البراهين، وأبوا إلا أن يسجدوا لغيره استقلالاً أو معه، فإن الله تعالى غني حميد، مستغن عن عبادتهم بعبادة الملائكة المقربين، الذين (يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩) أي لا يملون من كثرة التسبيح والتحميد، ولا يفترون عن ذكر الله وعبادته والسجود له.

ومن دلائل التوحيد إحياء الأرض بعد موتها:

(وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ) الدالة على عظيم قدرته وكمال سلطانه ووحدانيته، (أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً) أي يابسة ميتة، لا حياة فيها، ولا حركة لها، (فإذا أنزلنا عليها الماء) أي المطر، (اهتزت) بالنبات، (وربت) أي زادت وارتفعت، ولولا الله ما أنبتت كلأ، ولا أخرجت عشبًا. قال تعالى: (هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [النحل: ١٠- ١١]، وقال تعالى: (فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ) [عبس: ٢٤- ٣٢]، وقال تعالى: (أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ) [الواقعة: ٦٣- ٧٠]، وقال تعالى: (أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) [النمل: ٦٠].

فإحياء الأرض الموات من دلائل التوحيد، وهو أيضا من دلائل البعث بعد الموت، ولذلك قال تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، فكما يحيي الله تعالى الأرض الميتة بالماء كذلك يحيي موتى بني آدم يوم القيامة، وقد كثر في القرآن الكريم هذا التشبيه.

قال تعالى: (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ) [الزخرف: ٩- ١١].

وقال تعالى: (وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ) [ق: ٩- ١١]، أي كذلك يكون خروجكم من الأرض يوم القيامة، كما أخرج الله تعالى النبات من الأرض بإنزال الماء عليها من السماء.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ». قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ أَبَيْتُ. قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ: «ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً. فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلاَّ يَبْلَى إِلاَّ عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [صحيح البخاري: ٤٨١٤].

ولما أبان الله تعالى آيات التوحيد وأظهرها لكل ذي لُبّ، توعد الذين عموا عنها، ولم يؤمنوا بها، فقال تعالى: (إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون

علينا) أي: يميلون عن حُججنا وأدلتنا، ويمرون عليها وهم عنها معرضون، ويزيغون عنها تكذيبًا لها وجحودًا، (لا يخفون علينا)، فالله بهم عليم، ولأقوالهم سميع، وبأعمالهم بصير، وسيجزيهم بما كانوا يعملون، كما سبق في السورة، (فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ) [فصلت: ٢٧- ٢٨]، فأي الفريقين خير؟ (أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة)؟ فليختر كل امرئ لنفسه ما يشاء، فقد ظهر سبيل الرشاد الذي يوصل إلى الجنة، وظهر سبيل الغي الذي يفضي إلى النار، ف (اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير).

وهذا السياق أشبه ما يكون بقوله تعالى: (وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا) [الكهف: ٢٩- ٣١].

فضل القرآن الكريم وجزاء من كفر به:

يقول تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ):

(إن) حرف توكيد ونصب، والموصول وصلته اسم (إن)، و (الذكر) هو القرآن الكريم، كما قال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ) [الحجر: ٩]، وخبر (إن) محذوف، لتفخيم شأنه، وتعظيم أمره؛ لأن التهديد بالمجهول أبلغ في الزجر من التصريح به.

ثم وصف الله الذكر الذي كفروا به بما يدل على عظيم جرمهم، فقال: (وإنه لكتاب عزيز) لأنه كلام الله العزيز، (وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ) [الزخرف: ٤]، لأنه كلام الله العلي الحكيم.

ولعزته (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) أي لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيه بالتغيير والتبديل، ولا بالزيادة والنقصان، لأن الله حافظه، كما قال سبحانه: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ) [الحجر: ٩].

وقوله تعالى: (تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) بيان لمصدر هذا القرآن، وأنه كلام الله الحكيم، في أفعاله وأقواله، وأوامره ونواهيه، فله الحمد في الأولى والآخرة.

ثم عزّى الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم وواساه فيما يسمع من قومه من الأذى والتكذيب، فقال تعالى: (مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ)، كما قال تعالى: (وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) [البقرة: ١١٨]، وقال تعالى: (كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) [الذاريات: ٥٢- ٥٣]، والمقصود حث النبي صلى الله عليه وسلم على الصبر، والتأسي بإخوانه النبيين في ذلك، حتى يأتي وعد الله، كما قال تعالى: (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ) [الأنعام: ٣٤].

ثم يفتح الله تعالى باب التوبة أمام العصاة والمعاندين والمكذبين، ويحذرهم من الإصرار، فيقول سبحانه: (إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ)، فهو سبحانه ذو مغفرة لمن تاب وأناب، وذو عقاب أليم لمن أصر واستكبر.

وهذه الآية كقوله تعالى: (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ) [الرعد: ٦]، وقوله تعالى: (نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ) [الحجر: ٤٩- ٥٠]، وقوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) [الأنعام: ١٦٥].

ولما قال تعالى في أول السورة: (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون) قالوا: لو كان هذا القرآن أعجميًا! فأعلم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن هذا السؤال منهم على سبيل التعنت، وأنه لو أجابهم إلى ما سألوا لم يؤمنوا، فقال تعالى: (ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي) يريدون كيف يكون

الكتاب أعجميا والرسول عربيا؟! كما قال تعالى: (وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ) [الشعراء: ١٩٩]، فالقوم معاندون ومستكبرون، ولو جاءتهم كل آية لا يؤمنون، كما قال تعالى: (وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ) [الأنعام: ١٠٩ - ١١١].

ثم بين الله تعالى فضل القرآن وبركته، وأهله الذين ينتفعون به، فقال تعالى: (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ)، فالقرآن الكريم هدى وشفاء للذين آمنوا دون غيرهم، فهو هدى يهديهم إلى صراط الله المستقيم، وشفاء لما في صدورهم من أمراض الريب والشك، والنفاق والكفر، وهو أيضا شفاء للأبدان من الأمراض والأسقام والأوجاع، فمن كان مريضا فليضع يده على موضع الألم، وليقرأ الفاتحة، والمعوذات، يبرأ بإذن الله.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَنْفُثُ عَلَى نَفْسِه فِي الْمَرَضِ الَّذِي مَاتَ فيه بِالْمُعَوِّذَاتِ، فَلَمَّا ثَقُلَ كُنْتُ أَنْفِثُ عَلَيْهِ بِهِنَّ، وَأَمْسَحُ بِيَدِ نَفْسِه لِبَرَكَتِهَا» [صحيح البخاري: ٥٧٣٥].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَتَوْا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فَلَمْ يَقْرُوهُمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ لُدِغَ سَيِّدُ أُولَئِكَ فَقَالُوا هَلْ مَعَكُمْ مِنْ دَوَاءٍ أَوْ رَاقٍ؟ فَقَالُوا: إِنَّكُمْ لَمْ تَقْرُونَا، وَلاَ نَفْعَلُ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلاً. فَجَعَلُوا لَهُمْ قَطِيعًا مِنَ الشَّاءِ، فَجَعَلَ يَقْرَأُ بِأُمِّ الْقُرْآنِ، وَيَجْمَعُ بُزَاقَهُ، وَيَتْفِلُ، فَبَرَأَ، فَأَتَوْا بِالشَّاءِ، فَقَالُوا لاَ نَأْخُذُهُ حَتَّى نَسْأَلَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَسَأَلُوهُ فَضَحِكَ، وَقَالَ: « وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ، خُذُوهَا، وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ» [صحيح البخاري ٥٧٣٦].

فهذه بركة القرآن التي ينتفع بها المؤمنون، أما الذين لا يؤمنون فهم منها محرومون، ولذلك قال تعالى: (والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى)، فهم صمّ بكمّ عمي، وهم مع ذلك (ينادون من مكان بعيد)، والسميع حين ينادى من مكان بعيد لا يسمع، فكيف بالأصم؟! ولذلك قال تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [البقرة: ٦- ٧].

ومرة ثانية يؤكد الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن موقف قومه منه هو نفسه موقف السابقين من رسلهم، فيقول تعالى: (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه) فمنهم من آمن ومنهم من كفر، كما اختلف قومك فيما جئتهم به، فأنجى الله موسى والمؤمنين، وأهلك الكافرين، وسينجيك والمؤمنين، وسيهلك الكافرين، فاصبر حتى يأتي الله بأمره، ف (لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) [الأنعام: ٦٧]، (ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب).

ثم بين سبحانه غناه عن عباده، وعدله معهم، فقال: (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد):

يقول تعالى: (مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ) ثوابه ونفعه، ومن عمل السيئات فعلى نفسه وزرها وضررها، والله غني عن العالمين، لا تنفعه الطاعات، ولا تضره السيئات، وهو سبحانه يقضي بينهم بالقسط، فلا يهضم حقا، ولا يُحمِّل نفسا وزر نفس أخرى، وقد صرح ربنا سبحانه وتعالى في الحديث القدسي بما صرح به في هذه الآية من غناه وعدله:

عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلاَنِيِّ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: « يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ » [صحيح مسلم ٢٥٧٧].

وللحديث بقية إن شاء الله والحمد لله رب العالمين.

من فضائل الصحابة

وأقوال المنصفين فيهم عموماً وفي معاوية خصوصاً

الشيخ الدكتور
عبد المحسن العباد البدر

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد؛ فإن من المعلوم أن خير البشر الأنبياء والمرسلون صلوات الله وسلامه وبركاته عليهم، وخيرهم وسيدهم خاتمهم نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، وأمته هي خير الأمم؛ كما قال الله عز وجل: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ) [آل عمران: ١١٠].

وخير هذه الأمة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخيرهم الخلفاء الراشدون الهادون المهديون: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم أجمعين، فقد أكرمهم الله بالوجود في زمانه وشرّفهم بصحبته والجهاد معه، وتلقي الكتاب والسنة عنه صلى الله عليه وسلم وإبلاغهما إلى من بعدهم؛ ومن فضائلهم حديث: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» رواه البخاري (٣٦٥١) ومسلم (٦٤٧٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، يَغْزُو فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: فيكُمْ مَنْ رَأَى رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ، ثُمَّ يَغْزُو فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ فيكُمْ مَنْ رَأَى مَنْ صَحِبَ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ، ثُمَّ يَغْزُو فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ فيكُمْ مَنْ رَأَى مَنْ صَحِبَ مَنْ صَحِبَ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ فَيُفْتَحُ لَهُمْ» رواه البخاري (٣٦٤٩) ومسلم (٦٤٦٧) عن أبي سعيد رضي الله عنه.

والقرون الثلاثة المفضلة: قرون الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، فالصحابة رضي الله عنهم رأت عيونهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتابعون رحمهم الله رأوا العيون التي رأته صلى الله عليه وسلم، وأتباع التابعين رحمهم الله رأوا العيون التي رأت الصحابة رضي الله عنهم، وقد كان التابعون يفرحون فرحاً شديداً بلقاء الواحد من الصحابة ويعتبرون ذلك غنيمة؛ ففي سنن أبي داود (٩٤٨) بإسناد صحيح عَنْ هِلَالِ بْنِ يَسَافٍ، قَالَ: «قَدِمْتُ الرَّقَّةَ، فَقَالَ لِي بَعْضُ أَصْحَابِي: هَلْ لَكَ فِي رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: قُلْتُ: غَنِيمَةٌ، فَدَفَعْنَا إِلَى وَابِصَةَ، قُلْتُ لِصَاحِبِي: نَبْدَأُ فَنَنْظُرُ إِلَى دَلِّهِ، فَإِذَا عَلَيْهِ قَلَنْسُوَةٌ لَاطِئَةٌ ذَاتُ أُذُنَيْنِ، وَبُرْنُسُ خَزٍّ أَغْبَرُ، وَإِذَا هُوَ مُعْتَمِدٌ عَلَى عَصًا فِي صَلَاتِهِ» الحديث. ووابصة بن معبد رضي الله عنه من المعمرين كما في تقريب التهذيب لابن حجر.

فضل الصحابة رضي الله عنهم:

وقد جاء في القرآن الكريم آيات دالة على فضل الصحابة رضي الله عنهم في سور الأنفال والتوبة والفتح والحديد والحشر، بل جاء في آية سورة الفتح ذكرهم والثناء عليهم في التوراة والإنجيل قبل أن يوجدوا وقبل أن يأتي زمانهم؛ قال الله عز وجل: (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) [الفتح: ٢٩].

وفيها أن الكفار يغاظون بهم، وفي شرح السنة للبغوي (٢٢٩/١): «وذكر بين يديه . أي الإمام مالك . رجل ينتقص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقرأ مالك هذه الآية: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً) إلى قوله: (لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) ثم قال: من أصبح من الناس في قلبه غلّ على أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فقد أصابته هذه الآية».

وفيها أن الصحابة جميعاً وُعدوا بالمغفرة والأجر العظيم، وحرف (من) في قوله: (مِنْهُمْ) لبيان الجنس لا للتبعيض، والمراد أن هذا الوعد في هذه الآية لجميع الصحابة وليس لبعضهم، وقد وصف ابن الأنباري الذين قالوا: إنها للتبعيض بالزندقة، قال ابن هشام في مغني اللبيب (١٥/٢): «وفي كتاب المصاحف لابن الأنباري: أن بعض الزنادقة تمسك بقوله تعالى (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً) في الطعن على بعض الصحابة، والحق أن (من) فيها للتبيين لا للتبعيض، أي الذين آمنوا هم هؤلاء».

وهذه الآية التي فيها كلمة (مِنْهُمْ) تعم الصحابة الأخيار مثلها آية المائدة التي فيها (مِنْهُمْ) وهي تعم الأشرار؛ قال الله عز وجل: (لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [المائدة: ٧٣] فإن الوعد في آية الفتح للصحابة كلهم لا لبعضهم، والوعيد في آية المائدة لكل من قال: (إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ) لا لبعضهم، ومثل هذا الوعد للصحابة الوعد لهم في قوله تعالى: (وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى) [التوبة: ٩٥].

أجل فضائل الصحابة الكرام:

ومن أجل فضائل الصحابة الكرام رضي الله عنهم أنهم الواسطة بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين من جاء بعدهم، فما عرف الناس الكتاب والسنة ولا عرفوا حقاً ولا هدى إلا من طريقهم، وكل صحابي روى حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم فله مثل أجور كل من عمل به إلى يوم القيامة؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِه» رواه مسلم (٤٨٩٩) عن أبي مسعود الأنصاري البدري رضي الله عنه، ولقوله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً» رواه مسلم (٦٨٠٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

نماذج من كلام السلف في توقير الصحابة:

وكل ناصح لنفسه محب الخير لها عليه أن يمتلئ قلبه بحبهم وتعظيمهم التعظيم اللائق بهم، وأن يكون لسانه رطباً بذكرهم بالجميل اللائق بهم، فلا يذكرهم إلا بخير، وأن يحذر من ذكرهم بأي شيء لا يليق بهم مع نظافة قلبه من الغل لهم، وهذه طريقة سلف هذه الأمة من التابعين ومن جاء بعدهم، وهذه نماذج من كلامهم الجميل:

١. الإمام مالك بن أنس (١٧٩هـ) رحمه الله، قال البغوي في شرح السنة (٢٢٩/١): «قال مالك: مَن يبغض أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان في قلبه عليه غل فليس له حق في فيء المسلمين، ثم قرأ قوله سبحانه وتعالى: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً) إلى قوله: (لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) الآية».

٢. الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١هـ) رحمه الله، قال في كتابه السنة: «ومن السنة ذكرُ محاسن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم أجمعين، والكف عن الذي جرى بينهم، فمَن سبَّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو واحداً منهم فهو مبتدعٌ رافضيٌّ، حبُّهم سنَّةٌ، والدعاءُ لهم قربة، والاقتداءُ بهم وسيلة، والأخذُ بآثارهم فضيلةٌ»، وقال: «لا يجوز لأحد أن يذكر شيئاً من مساوئهم ولا يطعن على أحد منهم، فمَن فعل ذلك فقد وجب على السلطان تأديبُه وعقوبتُه ليس له أن يعفوَ عنه بل يعاقبُه ثمَّ يستتيبُه، فإن تاب قبل منه وإن لم يتب أعاد عليه العقوبة وخلده في الحبس حتى يتوب ويراجع».

٣. الإمام أبو زرعة الرازي (٢٦٤هـ) رحمه الله، روى الخطيبُ البغدادي في كتابه الكفاية (ص:٤٩) بإسناده إليه قال: «إذا رأيت الرجل ينتقصُ أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديقٌ؛ وذلك أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا حقٌ والقرآن حقٌ، وإنَّما أدَّى إلينا هذا القرآنَ والسننَ أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنَّما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليُبطلوا الكتاب والسنة، والجرحُ بهم أولى وهم زنادقة».

٤. الإمام أبو جعفر الطحاوي (٣٢٢هـ) رحمه الله: قال في عقيدة أهل السنة والجماعة: «ونحبُّ أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبُّهم دينٌ وإيمانٌ وإحسانٌ، وبغضُهم كفرٌ ونفاقٌ وطغيانٌ».

٦. الإمام أبو عثمان الصابوني (٤٤٩هـ) رحمه الله،

قال في كتابه عقيدة السلف وأصحاب الحديث: «ويَرون الكفَّ عمَّا شجر بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتطهير الألسنة عن ذكر ما يتضمَّن عيباً لهم أو نقصاً فيهم، ويرون التَّرحُّم على جميعهم والموالاة لكافتهم».

٧. الإمام أبو المظفر السمعاني (٤٨٩هـ) رحمه الله، نقل الحافظ في الفتح (٣٦٥/٤) عنه أنَّه قال: «التعرُّضُ إلى جانب الصحابة علامةٌ على خذلان فاعله، بل هو بدعة وضلالةٌ».

٨. شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨هـ) رحمه الله، قال في كتابه العقيدة الواسطية: «ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كما وصفهم الله في قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، وطاعة للنبيِّ صلى الله عليه وسلم في قوله: (لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنَّ أحدَكم أنفق مثلَ أُحُدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه») (صحيح البخاريّ ٣٦٧٣).

٩. الشيخ ابن أبي العزِّ الحنفي (٧٩٢هـ) رحمه الله، قال في شرح الطحاوية (ص:٦٩٦): «فمن أضلُّ ممَّن يكون في قلبه غلٌ على خيار المؤمنين وسادات أولياء الله تعالى بعد النبيِّين»

١٠. الحافظ ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) رحمه الله، قال في كتابه فتح الباري (٣٤/١٣): «واتَّفق أهلُ السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من حروب ولو عُرف المحقّ منهم؛ لأنَّهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد وقد عفا اللهُ تعالى عن المخطئ في الاجتهاد بل ثبت أنَّه يؤجر أجراً واحداً وأنَّ المصيبَ يؤجر أجرين».

تحذير السلف من الوقوع في معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما:

وكل ما جاء من أحاديث وآثار في فضل الصحابة عموماً فإن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما داخل فيها، وقد جاء عن بعض السلف آثار مختصة به، وهذه نماذج منها:

١. الخليفة عمر بن عبد العزيز (١٠١هـ) رحمه الله، قال إبراهيم بن ميسرة: «ما رأيت عمر بن عبد العزيز ضرب إنساناً قط إلا إنساناً شتم معاوية فإنه ضربه أسواطاً». البداية والنهاية لابن كثير (٤٥١.٤٥٠/١١).

٢. الإمام عبد الله بن المبارك (١٨١هـ) رحمه الله، قال: «(معاوية عندنا محْنة، فمن رأيناه ينظر إليه شزَرًا اتهمناه على القوم» يعني الصحابة)، وسئل عن معاوية، فقال: «ما أقول في رجل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سمع الله لمن حمده)، فقال خلفه: ربنا ولك الحمد، فقيل: أيهما أفضل هو أم عمر بن عبد العزيز؟ فقال: لتراب في منخري معاوية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خير وأفضل من عمر بن عبد العزيز» البداية والنهاية (٤٤٩/١١).

٣. المعافى بن عمران الموصلي (١٨٥هـ) رحمه الله، قال وقد سئل: أيهما أفضل معاوية أم عمر بن عبد العزيز؟ فغضب، وقال للسائل: «تجعل رجلاً من الصحابة مثل رجل من التابعين؟! معاوية صاحبه وصهره وكاتبه وأمينه على وحي الله» البداية والنهاية (٤٥٠/١١).

٤. الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، قال الفضل بن زياد: سمعت أبا عبد الله وسئل عن رجل انتقص معاوية وعمرو بن العاص، أيقال له رافضي؟ فقال: «إنه لم يجترئ عليهما إلا وله خبيئة سوء، ما انتقص أحد أحدًا من الصحابة إلا وله داخلة سوء» البداية والنهاية (٤٥٠/١١).

٥. أبو توبة الربيع بن نافع الحلبي (٢٤١هـ) رحمه الله، قال: «معاوية ستر لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فإذا كشف الرجل الستر اجترأ على ما وراءه» البداية والنهاية (٤٥٠/١١).

٦. الإمام أبو زرعة الرازي رحمه الله، قال له رجل: إني أبغض معاوية، فقال له: ولِمَ، قال: لأنه قاتل علياً، فقال له أبو زرعة: (ويحك إن ربَ معاوية رب رحيم، وخصم معاوية خصم كريم، فأيش دخولك أنت بينهما؟! رضي الله عنهما) البداية والنهاية (٤٢٧/١١).

٧. الإمام أبو عبد الرحمن النسائي (٣٠٣هـ) رحمه الله، قال كما في ترجمته في تهذيب الكمال للمزي، وقد سئل عن معاوية فقال: «إنما الإسلام كدار لها بابٌ، فبابُ الإسلام الصحابة، فمن آذى الصحابةَ إنما أرادَ الإسلام، كمن نَقَرَ البابَ إنما يريدُ دخولَ الدار؛ قال: فمن أراد معاويةَ فإنما أراد الصحابة».

٨. الإمام ابن قدامة المقدسي (٦٢٠هـ) رحمه الله، قال في كتابه لمعة الاعتقاد: «ومعاوية خال المؤمنين، وكاتب وحي الله، وأحد خلفاء المسلمين رضي الله عنه».

وقد كتبت رسالة بعنوان: «عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم» طبعت مفردة وطبعت ضمن مجموع كتبي ورسائلي (٢٠٥.١٩١/٤)، ورسالة بعنوان: «من أقوال المنصفين في الصحابي الخليفة معاوية رضي الله عنه» طبعت مفردة وطبعت ضمن مجموع كتبي ورسائلي (٤٢٤.٣٩٧/٦).

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الحمد لله.. هذا ديننا

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

روى الإمام البخاري في صحيحه من حديث حُذَيْفَةَ بن اليمان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كانَ رَجُلٌ ممَّنْ كانَ قَبْلَكُمْ يُسيءُ الظَّنَّ بعَمَلِه، فقال لأهْلِه: إذا أنا مُتُّ فَخُذُوني فَذَرُّوني في الْبَحْرِ في يَوْمٍ صَائِف، فَفَعَلُوا به، فَجَمَعَهُ الله ثُمَّ قال: مَا حَمَلَكَ على الَّذي صَنَعْتَ؟ قال: ما حَمَلَنِي إلا مَخَافَتُكَ، فَغَفَرَ له».

مقدمة لا بد منها

بالتأمل في حديث الباب، في فوائده من خلال شروح أهل العلم عليه اخترت للمقالة عنوانًا هو: (الخوف من الله من منازل المؤمنين)، وهو مستفاد من تبويب الإمام البخاري على الحديث في كتاب الرقاق، ثم اخترت عنوانًا آخر ينافس الأول، وهو: (الخوف من الله من سمات التائبين)، ثم وجدت أن الحديث أصل بنفسه كضابط من ضوابط العذر بالجهل، فقلت: (العذر بالجهل والرد على بدعة التكفير)، أو (أهمية القلب في أعمال العبد)، ثم استفدت عنوانًا من تبويب الإمام مسلم للحديث وهو: (رحمة الله غلبت غضبه)، كل هذا مستفاد من حديثنا هذا، ثم هداني الله إلى عنوان يجمع هذا كله بل أكثر منه وهو: (الحمد لله.. هذا ديننا)، فالحمد لله أن ديننا جمع كل هذه المحاسن وأكثر منها في حديث واحد، فالسنة السنة يا عباد الله.

أولا: تخريج النص السالف، وعزو باقي الروايات الأخرى له إلى مصادرها:

١- رواه البخاري في كتاب الرقاق (٥ / ٢٣٧٧) بَاب الْخَوْفِ من اللَّهِ قال: حدثنا عُثْمَانُ بن أبي شَيْبَةَ حدثنا جَرِيرٌ عن مَنْصُورٍ عن رِبْعِيٍّ عن حذيفة وذكر الحديث، ورواه في كتَاب الأَنْبياء (٣ / ١٢٧٢) بَاب ما ذُكِرَ عن بَنِي إِسْرَائِيلَ، وفي كتاب التوحيد (٦/٢٧٢٢) بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى {يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ}، {إنه لَقَوْلٌ فَصْلٌ} {حَقٌّ} {وما هو بِالْهَزْلِ} (باللَّعِبِ)، ط٣/ دار ابن كثير، تحقيق: د. مصطفى البُغا.

٢- ورواه مسلم في صحيحه في كتاب التوبة (٢١٠٩/٤)، بَاب في سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنَّهَا سَبَقَتْ غَضَبَهُ، ط/ دار إحياء التراث العربي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

٣- ورواه النسائي في (المجتبى) في كتاب الجنائز(١١٣/٤) برقم (٢٠٨٠) ط٢/ مكتب المطبوعات الإسلامية، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة.

٤- ورواه ابن ماجه في سننه في كتاب الزهد (٢ / ١٤٢١) باب ذكر التوبة ط/ دار الفكر، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

ثانيًا: رجال الإسناد باختصار

١- عثمان بن أبي شيبة: هو عثمان بن محمد بن أبي شيبة إبراهيم العبسي الكوفي، قال ابن حبان في الثقات: كان حسن الاستقامة في الحديث، وقال الخطيب: كان ثقة، وقال أحمد بن محمد بن بكر: مات سنة ٢٥٦هـ. (انظر: تهذيب التهذيب ج٧ ص١١٢)، ط/دار الفكر).

٢- جرير: هو ابن عبد الحميد بن قرط الضبي الكوفي الرازي (يعني: نزيل الري) وقاضيها، ثقة صحيح الكتاب، مات سنة ثمان وثمانين وله إحدى وسبعون سنة. (انظر: تقريب التهذيب ج١ ص١٣٩).

٣- منصور: هو ابن المعتمر بن عبد الله السلمي أبو عتاب بمثناة ثقيلة ثم موحدة، الكوفي، ثقة ثبت، وكان لا يدلس من طبقة الأعمش، مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة. (تقريب التهذيب ج١ ص٥٤٧).

٤- ربعي بن حراش: بكسر المهملة وآخره معجمة أبو مريم العبسي الكوفي ثقة عابد مخضرم من الثانية، مات سنة مائة، وقيل غير ذلك. (تقريب التهذيب ج١ ص٢٠٥).

٥- حذيفة: ابن اليمان الصحابي الجليل، وانظر ترجمته في «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» (١ / ٩٨-٩٩) وغيره من المصادر.

ثالثا: الشرح

١- قوله: (كان رجل ممن كان قبلكم): يعني من بني إسرائيل (من أجل هذا ذكره البخاري في ذكر بني إسرائيل). (عمدة القاري (٣٣/٢٥٦).

فائدة: وهل شرع بني إسرائيل شرع لنا؟ سيأتي الجواب عن هذا فيما يُستفاد من الحديث.

٢- قوله: (يسيء الظن بعمله): يعني بعمله الذي كان معصية، ففي صحيح ابن حبان من طريق ربعي بن حراش أنه كان نباشا للقبور يسرق أكفان الموتى، وعند أبي عوانة من حديث حذيفة عن أبي بكر الصديق أنه آخر أهل الجنة دخولاً، فيكون آخر من يخرج من النار، وفي المصابيح أنه كان يقول: أجرني من النار مقتصرًا على ذلك (شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٩/ ٢٧٥).

٣- قوله: (فَقَالَ لأَهْلِه: إِذَا أَنَا مُتُّ، فَخُذُونِي، فَذَرُّونِي فِي الْبَحْرِ): بضم الذَّال من الذر وهو التفريق، ويروى بفتح الذال من التذرية، يقال: ذرت الريح الشيء ومنه (تذروه الرياح). (عمدة القاري (٣٣/٢٥٦).

٤- قوله: (في يوم صائف): أي حارّ بتشديد الراء من الحرارة (وفي حديث أبي سعيد (في يوم عاصف) أي عاصف ريحه، وفي رواية مسلم (في ريح عاصف) (الفتح ٦/٥٢٢).

٥- قوله في بعض الروايات (فوالله لئن قدر الله عليَّ ليعذبني عذابًا لم يعذبه أحدًا من خلقه): اختلف العلماء في توجيه هذه اللفظة، وأصوبها أن الرَّجل لم يكن عالماً بجميع ما يستحقه الله من الصفات، ولا مدركاً للقدرة الإلهيَّة على وجه التفصيل كما قاله شيخ الإسلام، وسيأتي بيانه إن شاء الله.

٥- (ففعلوا به): ما أمرهم به.

٦- (فجمعه الله) عز وجل، وفي رواية (فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيك منه. ففعلت)، وفي حديث سلمان الفارسي عند أبي عوانة في صحيحه فقال الله له: (كن فكان كأسرع من طرفة العين) (الفتح ٦/٥٢٢).

٧- (ثم قال) الله تعالى له: (ما حملك على الذي صنعت؟) قال (الرجل): (ما حملني) عليه (إلا مخافتك، فغفر له). (إرشاد الساري (٩/ ٢٧٥».

رابعا: ما يُستفاد من الحديث

١-الخوف من الله من منازل السائرين إليه:

ولقد بوب الإمام البخاري لهذا الحديث في كتاب الرقاق بباب الخوف من الله، يقول الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٣١٣)«الخوف من الله من المقامات العلية وهو من لوازم الإيمان، قال الله تعالى: (وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)(آل عمران: ١٧٥)». يقول الشيخ السعدي: في هذه الآية دليل على وجوب الخوف من الله وحده، وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله. (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ١/٢٩٤- ٢٩٥).

حتى لا يختلط الأمر

وحتى لا يختلط الأمر بين المشروع والممنوع من الخوف نذكر أقسامه وانظره في:(القول المفيد على شرح كتاب التوحيد، لابن عثيمين: ٢/١٦٦):

أ- خوف العبادة، والتذلل، والتعظيم، والخضوع، وهو ما يسمى بخوف السر. والذي يكون معه اعتقاد النفع والضر، وهذا النوع لا يجوز صرفه لغير الله.

ب- الخوف الجبليُّ، كالخوف من عدو، أو نحو ذلك. فهذا النوع يأخذ من الأحكام بحسب حال الخائف، فمنه ما هو محرم إن حمل على ترك واجب، أو فعل محرم، بغير ضرورة تستلزم ذلك.

ومنه ما هو مباح، كما حصل لموسى عليه السلام: (فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ) (القصص: ٢١)، وقد يكون واجباً إذا كان يتوصل به إلى إنقاذ نفسه، وكلا القسمين السابقين مشروع.

فائدة وحوار لبيان الممنوع من الخوف

أما الممنوع من الخوف فهو نوع غالى فيه صاحبه، حتى صار مرضاً فقطع صاحبه عن السعي، وأقعده عن الفضائل المطلوبة، والأعمال المحبوبة عند الله، فخرج الخوف بهذا عن كونه مشروعًا وصار مذمومًا ممنوعا وصاحبه يخشى عليه (انظر: التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، لابن رجب: ٢٠).

«فالخوف ليس مقصوداً لذاته، بل هو مقصود لغيره (قصد الوسائل)» (انظر: مدارج السالكين: ١/٥١٤).

والناظر إلى حال الصحابة . رضي الله عنهم . يرى أن الخوف قد كان غالباً عليهم ؛ إذ لم يخف من الله . عز وجل . بعد النبيين أحدٌ مثلهم، ومع هذا لم يظهر عليهم شيء من دعاوى الغالين، مع عدم تفريطهم في الخوف من رب العالمين؛ فلم يؤثر ذلك عليهم، لا في قطع كسب وعيش، ولا في إقعاد عن فضل عمل وعبادة ؛ وذلك لقوة علمهم بالله ؛ فقوة العلم بالله تورث شدة الخوف منه.

ولقد أدهشني حوار دار بيني وبين أحد الأساتذة الذين أكن لهم الاحترام ولولا أن شرع الله - خاصة وإن تعلق الأمر بالعقيدة - لا مجاملة فيه ما ذكرت هذا الحوار (مختصرًا له): ذكر أستاذنا أمامي مرة

صاحب كتاب (طبقات الصوفية) مادحًا له، فقلت له: أليس هو القائل في حق فلان: « وكان من كرامته أنه رضي الله عنه يمشي عاريًا؟!»

فقال أستاذ الحديث الذي أحترمه: وماذا في هذا إنه من شدة حبه لله وخوفه منه مشى عريانًا. فقلت متعجبًا: ألا يوجد واحد من الصحابة أحب أو خاف من الله كما فعل هذا الولي؟! وأختصر كلامي تاركًا الجواب للقارئ الحبيب؛ لأنني أظن أن تقرير البديهيات لا يحتاج إلى هذه المناقشات.

وخلاصة القول: إن الخوف المطلوب هو ما كان عوناً على التقرب إلى الله بفعل ما يحبه، وترك ما يكرهه، ومتى صار الخوف من الله مانعاً من المخالفة، وحافزًا للقربى، فقد انعكس المقصود منه.

وكان يحسن بنا أن نذكر نماذج من أحوال سلفنا في خوفهم من الله، لكنني ولضيق المقام أحيلك أيها الحبيب إلى ما كتبه أسلافنا كابن رجب في (التخويف من النار والتحذير من دار البوار) لتطلع فيه على حال هؤلاء.

٢- شرع من قبلنا شرعٌ لنا؛ ما لم يرد في شرعنا ما يرده:

وهي مسألة مختلف فيها، والراجح، والله أعلم، هو قول الجمهور وهو أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد في شرعنا ما يخالفه، واستدلوا بأدلة كثيرة من أقواها:

أ - أن الله عز وجل لما ذكر الأنبياء في سورة الأنعام ختم الآيات بقوله: (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده)، والهدى هنا عامّ؛ لأنه مفرد مضاف فيشمل جميع الهدى ما لم يرد خلافه.

ب - حديث أنس قال: إن الربيع وهي ابنة النضر كسرت ثنية جارية، فطلبوا الأرش (أي: طلب أهل الربيع أن يدفعوا لأهل الجارية الدية)، وطلبوا العفو(مقابل ما سيدفعون)، فأبوا (أي: أهل الجارية) فأتوا النبي، فأمرهم بالقصاص، فقال أنس بن النضر: أتُكسر ثنية الربيع يا رسول الله؟ لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها. فقال: « يا أنس كتاب الله القصاص» فرضي القوم وعفوا فقال النبي: « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره» رواه البخاري(٢٧٠٣).

وكتاب الله المراد قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ﴾ [سورة المائدة: ٤٥] الآية، وهي في بني إسرائيل، وهذا هو تفسير جمهور شراح الحديث.

من أجل هذا نقول: هذا الحديث وإن كان من شرع من قبلنا إلا أنه شرع لنا؛ لما سبق ذكره، بل وزيادة عليه أنه سيق وقد أقره النبي صلى الله عليه وسلم.

٣- العذر بالجهل والرد على بدعة التكفير

من أهم ما يستفاد من هذا الحديث أنه يقرر أصلاً مهمًا من أصول أهل السنة والجماعة، وهو أنهم يعذرون الجاهل بجهله، ولا يُعيِّنون بالكفر إلا بعد تحقق شروط في هذا المعين وانتفاء موانع تمنع من تنزيل الحكم عليه، ذكرها أهل العلم بالتفصيل في مظانها.

وأكتفي في عرض القضية مختصرة من خلال الكتاب وصحيح السنة وكلام السلف لاسيما شيخ الإسلام ابن تيمية المفتري عليه:

أ- قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]،

ب- وأكتفي في السنة بحديث الباب، والنصوص في هذا كثيرة، والحمد لله.

ج- قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوى»(٣/٢٢٩): «هذا مع أني دائماً - ومن جالسني يعلم ذلك مني - أني من أعظم الناس نهياً عن أن يُنسب معيَّنٌ إلى تكفير وتفسيق ومعصية، إلا إذا عُلِمَ أنه قد قامت عليه الحُجَّة الرسالية، التي من خالفها كان كافراً تارةً، وفاسقاً أخرى، وعاصياً أخرى، وإني أقرِّر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها، وذلك يعمُّ الخطأ في المسائل الخبريَّة القوليَّة، والمسائل العمليَّة، وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل، ولم يشهد أحدٌ منهم على أحد لا بكفر، ولا بفسق، ولا بمعصية!..

وكنت أبيِّن أنَّ ما نُقل عن السلف والأئمة من إطلاق القول بتكفير مَنْ يقول كذا وكذا، فهو أيضاً حقٌ، لكن يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين.. والتكفير هو من الوعيد؛ فإنه وإن كان القول تكذيباً لما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم لكن قد يكون الرجل حديث عهد بإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة، ومثل هذا لا يُكفر بجَحْد ما يجحده حتى تقوم عليه الحُجَّة، وقد يكون الرجل لم يسمع تلك النصوص، أو سمعها ولم تثبت عنده، أو عارضها عنده مُعارضٌ آخر، أوجب تأويلها وإن كان مخطئاً، وكنت دائماً أذكر الحديث الذي في «الصحيحين» في الرجل الذي قال: «إذا أنا متُّ فاحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذروني في اليَمِّ، فوالله لئن قدر الله عليَّ ليعذبني عذاباً ما عذَّبه أحداً من العالمين، ففعلوا به ذلك؛ فقال الله: ما حملك على ما فعلت؟ قال: خشيتك، فغفر له»

فهذا رجلٌ شكَّ في قدرة الله، وفي إعادته إذا ذُرِّي؛ بل اعتقد أنه لا يُعاد، وهذا كفرٌ باتفاق المسلمين؛ لكنه كان جاهلاً لا يعلم ذلك، وكان مؤمناً يخاف الله أن يعاقبه؛ فغفر له بذلك».

وقال أيضا (٣٥/١٦٥): «وأصل ذلك: أن المقالة التي هي كفرٌ بالكتاب والسنّة والإجماع، يقال: هي كفرٌ قولاً، يطلق كما دلت على ذلك الدلائل الشرعية؛ فإن الإيمان من الأحكام المتلقاة عن الله ورسوله، ليس ذلك مما يحكم فيه الناس بظنونهم وأهوائهم، ولا يجب أن يحكم في كل شخص قال ذلك بأنه كافر، حتى يثبت في حقه شروط التكفير، وتنتفي موانعه.... إلى أن قال: «فإن هؤلاء لا يُكفرون حتى تقوم عليهم الحجّة بالرسالة؛ كما قال الله تعالى: (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ) [النساء: ١٦٥]».

د- ومن العلماء المعاصرين: يقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في (الشرح الممتع على زاد المستقنع ٦ / ١٦٣): وهذه المسألة . أعني مسألة العذر بالجهل . مسألة عظيمة شائكة، وهي من أعظم المسائل تحقيقاً وتصويراً، ومما زاد الأمر صعوبة كثرة المؤلفات فيها من جميع المناهج وكل واحد يتبنى رأيه واعتقاده، وبعضهم يستدلون بأدلة ليس لها علاقة بالقضية أصلاً، ومنهم من يحملون كلام السلف محملاً خطأ، ومنهم من لا يفرقون بين التكفير المطلق وتكفير المعين، ومنهم من يأتي بنصوص ويترك النصوص الأخرى، ومنهم من يأتي بأقوال للعلماء ويترك أقوالهم الأخرى وهكذا، وغير ذلك من التخبط البعيد عن المنهج العلمي».

نصيحة واجبة:

هذا، وأنصح نفسي وإخواني أن نلتمس العذر لمن خالف الحق الذي نعتقده؛ حتى تُقام الحجة بضوابطها المعروفة لدى أهل العلم، وأن نعطي للمسألة حجمها من القراءة والبحث بهدوء وبلا استعجال، وأن نعلم أننا دعاة ولسنا قضاة، وأن الداعية حريص على تأليف القلوب لا تنفيرها، دعوتنا هي توحيد الناس على كلمة التوحيد، وأن واجبنا تعليم الناس وليس تكفيرهم وتبديعهم، وأننا بهذا لا نميع القضية، ولكننا نناقش مسألة مهمة قد يؤدي التقصير في عرضها إلى تدمير المجتمع، والله المستعان.

٤- حكم سوء ظن العبد بنفسه

وهو متعلق بالفائدة السابقة فلو اتهم المرء نفسه لسهل عليه عذر غيره، وقد اختلف فيه العلماء، فمنهم من رأى الاستحباب. قال ابن القيم: (أما سوء الظن بالنفس فإنما احتاج إليه؛ لأنَّ حسن الظن بالنفس يمنع من كمال التفتيش، ويلبس عليه، فيرى المساوئ محاسن، والعيوب كمالاً.

فعين الرضى عن كل عيب كليلة
كما أن عين السخط تبدي المساويا

ولا يسيء الظن بنفسه إلا من عرفها، ومن أحسن ظنه بنفسه فهو من أجهل الناس بنفسه). «انظر: مدارج السالكين» (١/١٨٩)،

- ومنهم من رأى الكراهة؛ كما نقله الماوردي رحمه الله في أدب الدنيا والدين (١/٢٣٤-٢٣٥).

- ومنهم من قال بالموازنة بين سوء الظن وحسن الظن. (ينبغي على المرء أن - يكون في التهمة لنفسه معتدلاً، وفي حسن الظن بها مقتصدًا، فإنه إن تجاوز مقدار الحقّ في التهمة لنفسه ظلمها؛ فأودعها ذلة المظلومين، وإن تجاوز الحق في مقدار حسن الظن بها أمنها؛ فأودعها تهاون الآمنين. ولكل ذلك مقدار من الشغل، ولكل شغل مقدار من الوهن، ولكل وهن مقدار من الجهل) «البيان والتبيين» لأبي عثمان الجاحظ (١/٦٤).

قلت: والموازنة -والله أعلم- هي المنهج الوسط الأنسب لأحوال الناس.

فائدة أخيرة: هل يعد الندم توبة كما فعل هذا الرجل؟

الجواب: إن مجرد الندم لا يعد توبة، يقول ابن القيم في مدارج السالكين (١/١٨٢): (وشرائط التوبة ثلاثة: الندم، والإقلاع، والاعتذار، فحقيقة التوبة هي الندم على ما سلف منه في الماضي والإقلاع عنه في الحال، والعزم على أن لا يعاوده في المستقبل.

والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة؛ فإنه في ذلك الوقت يندم ويقلع ويعزم، فحينئذ يرجع إلى العبودية التي خُلق لها، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة،

ولما كان متوقفا على تلك الثلاثة جعلت شرائط له).

إذن ومما تقدم فإن الندم هو جزء من التوبة وشرط من شروطها، ولا يفوتنا أن نذكر بما ورد في صحيح ابن ماجه برقم (٣٤٢٩) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الندم توبة)، والمراد أنه أول مراحل التوبة، والله أسأل كما رزقنا دينًا وسطًا قويمًا أن يتوب علينا ويهدينا صراطا مستقيمًا، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله رب العالمين.

درر البحار في تحقيق ضعيف الأحاديث القصار

إعداد/ علي حشيش

الحلقة ٢١

٢١٠- «لَوْ عَاشَ إبراهيمُ لَوَضَعْتَ الجِزيَةَ عن كلِّ قِبطيّ».

الحديث لا يصح: أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٦٩/١) من حديث الزهري مرفوعًا، والزهري هو محمد بن مسلم بن شهاب من الطبقة الرابعة، وهي طبقة تلي الوسطى من التابعين، جُل روايتهم عن كبار التابعين ذكره الحافظ في «التقريب» (٢٠٧/٢)، وبما أن الزهري رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فهناك سقط في الإسناد، والحديث مرسل، وعلة أخرى محمد بن عمر الواقدي روى عنه كاتبه محمد بن سعد، وروى عن محمد بن عبد الله بن مسلم بن أخي الزهري كما في هذا السند، والواقدي قال فيه الإمام أحمد بن حنبل: كذَّاب، وقال أبو حاتم: يضع الحديث، وقال ابن عدي: أحاديثه غير محفوظة والبلاء منه ذكره في «الميزان» (٧٩٩٣/٦٦٢/٣) فالحديث باطل بالسقط في الإسناد والطعن في الراوي.

٢١١- «علمني جبريل عليه السلام الصلاة، فقام فكبَّر لنا، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، فيما يجهر به في كل ركعة».

الحديث لا يصح: أخرجه الدارقطني في «السنن» (٦٤٠/١) (ح١١٥٧) من حديث خالد بن إلياس عن المقبري، عن أبي هريرة مرفوعًا وآفته خالد بن إلياس، قال الإمام النسائي في «الضعفاء والمتروكين» (١٧٢): «مدني متروك الحديث». قلت: وهذا المصطلح عند النسائي له معناه، فقد بينه الحافظ ابن حجر في «شرح النخبة» (ص٧٣) قال: «مذهب النسائي ألا يترك حديث الرجل حتى يجتمع الجميع على تركه». اهـ. بل قال ابن حبان في «المجروحين» (٢٧٥/١): «يروي الموضوعات عن الثقات حتى يسبق إلى القلب أنه الواضع لها؛ لا يحل أن يُكتب حديثه إلا على جهة التعجب». اهـ.

قلت: ولقد خرَّج العلامة الزيلعي أحاديث الجهر بالبسملة في «نصب الراية» (٤٧٨/١) ثم قال: وبالجملة فهذه الأحاديث كلها ليس فيها صريح صحيح.

ونقل ذلك الشيخ الألباني في «الضعيفة» (٤٦٨/٥) قال: «ولا يصح في الجهر بالبسملة حديث، وكل ما ورد في الباب لا يصح إسناده، وفي الصحيح خلاف ذلك، فراجع نصب الراية». اهـ.

٢١٢- «ما من عبدٍ مسلم ولا أَمة مسلمة قرأ في يوم وليلة مائتي مرة: «قل هو الله أحد الله الصمد» إلا غفر الله له خطايا خمسين سنةٍ».

الحديث لا يصح: أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (ح٦٩٤) من حديث أنس مرفوعًا، وآفته زيادة بن أبي عمار، قال البخاري في «الضعفاء الصغير» (١٢٤): «زيادة بن ميمون أبو عمار البصري صاحب الفاكهة سمع أنسًا متروك». اهـ.

وقال النسائي في «المتروكين» (٢٢٢): «متروك»، وقال يزيد بن هارون: «كان كذابًا»، وقال أبو زرعة: «واهي الحديث» ذكره الذهبي في «الميزان» (٢٩٦٧/٩٤/٢) وقال زياد بن ميمون الثقفي الفاكهي عن أنس، ويقال زياد، أبو عمار البصري، وزياد بن أبي عمار، وزياد بن أبي حسان يدلسونه لئلا يعرف في «الحال». اهـ. وهذا يسمى بتدليس الشيوخ، وهو أن يروي عن شيخ حديثًا سمعه منه فيسميه، ويكنيه أو ينسبه أو يصفه بما لا يُعرف كي لا يُعرف. كذا في «علوم الحديث» النوع (١٢) لابن الصلاح.

٢١٣- «إن الله ليس بتاركٍ أحدًا من المسلمين يوم الجمعة إلا غفر له».

الحديث لا يصح، أخرجه الطبراني في «الأوسط» (ح٤٨١٤) من حديث أنس مرفوعًا، وأورده الذهبي في «الميزان» (٢٩٦٧/٩٤/٢) في ترجمة زياد بن ميمون الثقفي الفاكهي، ويقال له زياد، أبو عمار كما بينا آنفًا وهو آفته، وجعله من مناكيره وهو كذاب.

٢١٤- «إن الله لا يعذب الموحدين على نقص إيمانهم ويردهم إلى الجنة خُلودًا دائمين».

الحديث لا يصح، أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥٤/٨) من حديث أنس مرفوعًا، وآفته قطن بن صالح ذكره الحافظ الذهبي في «الميزان» (٦٩٠/٣٩١/٣) قال أبو الفتح الأزدي: كذاب.

٢١٥- «كاد الفقر أن يكون كفرًا، وكاد الحسد أن يكون سبق القدر».

الحديث لا يصح: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢٥٣/٨) من حديث أنس مرفوعًا، وآفته يزيد الرقاشي وأخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (ح١٣٤٦) وقال: «هذا حديث لا يصح ويزيد الرقاشي لا يعول على ما يروي». اهـ. قال النسائي في «المتروكين» (٦٤٢) يزيد بن أبان الرقاشي متروك بصري». اهـ.

٢١٦- «كاتم العلم تلعنه كل شيء حتى الحوت في البحر، والطير في السماء».

الحديث لا يصح، أخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (ح١٢٥) من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعًا، وآفته يحيى بن العلاء، نقل الحافظ الذهبي في «الميزان» (٩٥٩١/٣٩٧/٤) عن الإمام أحمد بن حنبل قال: يحيى بن العلاء كذاب يضع الحديث.

٢١٧- «إذا رأيتم الحريق فكبروا فإن التكبير يطفئه».

الحديث لا يصح: أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (ح٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا، ومدار هذه الأحاديث الأربعة على القاسم بن عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم العمري وهو الآفة، قال الإمام أحمد بن حنبل: «ليس بشيء كان يكذب ويضع الحديث». وقال يحيى: ليس بشيء كذاب، وقال أبو حاتم النسائي: متروك، ذكره الذهبي في «الميزان» (٦٨١٢/٣٧١/٣)، وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (١١٢/٥) من حديث ابن عباس مرفوعًا وفيه عمرو بن جُميع قال يحيى: «كان كذابًا خبيثًا»، وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (١٥١/٤) ودلسه ابن لهيعة كما بينه الحافظ العقيلي في تخريجه لهذا الحديث في «الضعفاء» (٨٦٧/٢٩٣/٢)، وابن حبان في «المتروكين» (١١/٢).

٢١٨- «من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله».

هذا الحديث لا يصح: أورده الغزالي في «الإحياء» (١٢٢/٤) مرفوعًا، وقال الحافظ العراقي في «المغني» (١٢٢/٤- إحياء): لم أجده بهذا اللفظ.

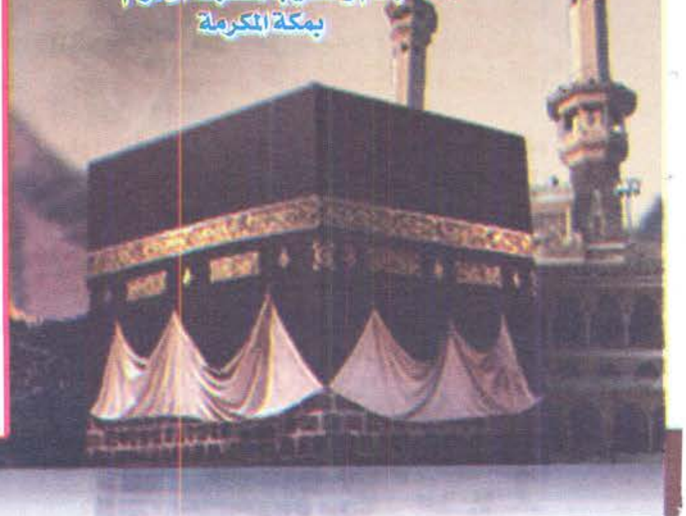
٢١٩- «ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مَرَّت بهم لم يذكروا اللهَ فيها».

الحديث لا يصح: أخرجه الطبري في «الكبير» (١٨٢/٩٣/٢٠)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (ح٣)، والبيهقي في «الشعب» (ح٥١٢، ٥١٣) من حديث معاذ مرفوعًا، وآفته يزيد بن يحيى القرشي، قال الذهبي في «الميزان» (٩٧٦٢/٤٤١/٤): «لا يُعرف»، وقال ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (١١٦٤/٢٧٢/٩): سألت أبي عنه فقال: ليس يقول الحديث. وهذا الحديث كان قد صححه الشيخ الألباني رحمه الله في «الصحيحة»، و«صحيح الجامع» (ح٥٤٤٦)، ثم تراجع العلامة الألباني رحمه الله وأورده في «الضعيفة» (٤٩٨٦)، وقال: «واعلم أنني كنت اغتررت برهة من الزمن بكلام المنذري والهيثمي المتقدمين قبل أن أطلع على إسناد الطبراني والبيهقي، وأوردت الحديث في الكتاب الآخر «الصحيحة» و«صحيح الجامع»، فلما وقفت على إسنادهما وتبين أن مداره على يزيد القرشي عند كل من أخرجه، رجعت عن ذلك كله، وكتبت على هامش «الصحيح» أن يُنقل إلى «الضعيف»، وشرحت السبب هنا كما ترى، والهادي هو الله. اهـ.

منبر الحرمين

الأسباب الجالبة للرزق

إعداد
الشيخ الدكتور / صالح بن حميد
إمام وخطيب المسجد الحرام بمكة المكرمة



الحمد لله، الحمد لله عنَت الوجوه لجلال وجهه، لا إله إلا هو عجَزت العقول عن إدراك كُنهه، وقامَت البراهينُ على نفي مثله وشِبهه، أحمده -سبحانه- وأشكُرُه، ألفضلُ والخيرُ بيديه، والعملُ والرغباءُ إليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له صرَّف شؤون الخلق بحكمته، وعمَّهم بجُوده ورحمته، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه بعثَه بالإيمان مُناديًا، وإلى جنة الله ورضوانه داعيًا، صلى الله وسلَّم وبارَك عليه، لا خيرَ إلا دلَّ عليه، ولا شرَّ إلا حذَّر منه، وعلى آله وأصحابه أفضل صحبٍ وخيرِ آل صلاةً وسلامًا يُبلِغانِ من ربنا الآمالَ، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وسلَّم تسليمًا كثيرًا مزيدًا إلى يوم المآل.

أما بعد: فأُوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله -رحمكم الله-، واعلموا أن لكم علمًا فانتهوا إلى علمِكم، ولكم نهايةً فانتهوا إلى نهايتكم.

محدودية مراحل عمر البشر:

أيها الإخوة: أيام العُمر مراحل معدودة، إلى وجهة مقصودة، للنفوس مواعيد تطلبُ آجالَها، وأعمارٌ مُقدَرةٌ لآمالها، وآجالٌ مُؤخَرةٌ لميعادها، فلا استزادةَ ولا استنقاص، ولا فواتَ ولا مناصَ، إنما هي آمادٌ مضروبة، وأنفاسٌ محسوبة، لله وحده البقاء، وللخلائق الفناء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨، ١٩].

إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين:

أيها المسلمون: اعملوا؛ فكلٌ مُيسَرٌ لما خُلق له، أرأيتم لو أن أرزاقَ الناس بأيدي البشر؛ فكم سيقع من الظلم والتظالُم، والبغي والفساد. تالله لو تُرِك ذلك إليهم لظلَمَ بعضهم بعضًا، ولبغَى بعضُهم على بعض؛ بل لنسيَ بعضُهم بعضًا، ولغفَل بعضُهم عن بعض!

فسبحان الرزاق الكريم ذي القوة المتين، لا يظلمُ ولا يبغي، ولا ينسَى ولا يغفَل؛ بل يتفضَل ويُنعم، ويُحسن ويرحم، وهو اللطيف الخبير: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢١- ٢٣].

معاشر المسلمين: إن هَم الرزق قد أكل قلوبًا، وأشغل عقولاً. في بعض الناس هلعٌ وجزعٌ حينما يسمع بالتغيُّرات الاقتصادية، والتقلُّبات المالية، والمُشكلات في أمور المعاش، وكأنهم لا يعلمون أن الله -عزَّ شأنه- قد تكفَّل بالرزق لجميع خلقه إنسهم وجنِّهم، مؤمنِهم وكافرهم، قويهم وضعيفهم، كبيرهم وصغيرهم: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [هود: ٦]، ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

انشغال عقول الناس بطلب الرزق:

عباد الله: لا يستبطِئَنَّ أحدٌ رزقَه، فلن يخرج من هذه الدنيا أحدٌ حتى يستكمِل رزقَه وأجلَه، فاتقوا الله وأجمِلوا في الطلب.

لقد كتب الله رزقَ ابن آدم وقدَره قبل أن يأتي إلى هذه الدنيا؛ عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: حدَّثنا رسولُ الله -صلى الله عليه وآله وسلم وهو الصادق المصدوق-: «إن أحدكم يُجمع خلقُه في بطن أمه أربعين يومًا نُطفة، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مُضغةً مثل ذلك، ثم يُرسل إليه الملَك فينفخُ فيه الروح، ويُؤمر بأربع كلمات: بكَتب رزقه، وأجله، وشقي وسعيد...». الحديث. متفق عليه.

الأسباب الجالبة للرزق:

معاشر المسلمين، ومعاشر الأحبَة: وهذا عرضٌ في بعض الأسباب الجالِبة للرزق، هدى إليه الربُّ، ودل عليها الشرع:

١- أما أول ذلك وأولاه: فتقوى الله -عز وجل-؛ فمن اتقى الله ولزِمَ مرضاته رزقَه من حيث لا يحتسب، وعدٌ من الله حقٌّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

يرزُقه من جهة لا تخطُر له على بال، ومن حيث لا يرجُو ولا يُؤمِّل: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

يتَّقي العبدُ ربَّه ظاهرًا وباطنًا، يتَّقي الله في نفسه وأهله وماله وعمله وفي شأنه كله.

ومن الأسباب -حفظكم الله-:

٢- كثرةُ الاستغفار والمُداومة عليه، يقول -عزَّ شأنُه- مُخبرًا عن نبيه نوح -عليه السلام-: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۝١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾[نوح: ١٠- ١٢]، ويقول عن هود -عليه السلام-: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

وورد في الحديث: «من أكثرَ الاستغفار جعل الله له من كل هم فرَجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ورزقَه من حيث لا يحتسِب». رواه أبو داود، وإسنادُه صحيحٌ.

يقول القرطبيُّ -رحمه الله-: «وهذا دليلٌ على أن الاستغفار يُستجلَبُ به الرزق، ويُستنزَلُ به الغيث».

استغفارٌ يتواطأُ فيه القلبُ مع اللسان غيرَ مُصرٍ على ذنب، ولا عازم على عود.

ومن الأسبابُ الجالبة للرزق والمباركة فيه:

٣- حُسن التوكُّل على الله:

ومن أعظم الأسباب -عباد الله-: حُسن التوكُّل على الله، فيتعلَّقُ القلبُ بمولاه، ويُفوِّضُ أمرَه إليه؛ فمن توكَّل على الله كفاه ما أهمَّه، ودفع عنه ما ضرَّه وأغمَّه، ورزقَه من حيث لا يحتسب، وفي الحديث: «لو أنكم تتوكَّلون على الله حقَّ توكُّله لرزَقكم كما يرزُقُ الطيرَ تغدُو خِماصًا وتروحُ بطانًا». رواه أحمد، والترمذي، وهو صحيح الإسناد.

يقول الحافظ ابن رجب -رحمه الله-: «هذا الحديث أصلٌ في التوكل، وأنه من أعظم الأسباب التي يُستجلَبُ بها الرزق».

قال بعضُ السلف: «توكَّل تُسَق إليك الأرزاق بلا تعب ولا تكلُّف».

وممَّا ينبغي أن يُعلم في هذا المقام -عباد الله-: أن التوكُّل لا يُعارِضُ الأخذَ بالأسباب، والاجتهاد في الطلب؛ بل قالَ أهلُ العلم: «إن السعيَ في الجوارح واقتفاء الأسباب طاعةٌ لله، والتوكُّل بالقلب إيمانٌ به -سبحانه-».

وقد قال -عزَّ شأنُه- في طلب الأسباب: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]، وقال -عزَّ شأنه-: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

يقول القرطبيُّ -رحمه الله-: «سوَّى الله في هذه الآية بين درجة المُجاهدين والمُكتسبين المال الحلال للنفقة على النفس والعيال والإحسان والإفضال»، قال -رحمه الله-: «فكان دليلاً على أن الكسبَ بمنزلة الجهاد؛ لأنه جمعَه معه».

وعُمر -رضي الله عنه- يقول: «لا يقعُدُ أحدُكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزُقني؛ فقد علِمتُم أن

السماءَ لا تُمطرُ ذهبًا ولا فضةً».

والتوكل محلُّه القلب، والسعي وظيفة الجوارح، وما تعسَّر من شيءٍ فبتقديره، وما تيسَّر من شيءٍ فبتيسيره، ولما قال رجلٌ للنبي -صلى الله عليه وسلم-: أُرسلُ ناقتي وأتوكل؟! قال له: «اعقلها وتوكل». أخرجه الحاكم في مستدركه، قال الذهبي: «إسناده حسنٌ».

ومن الأسباب الجالبة للرزق والمباركة فيه:

٤- صلة الرحم:

ومن الأسباب الجالبة للرزق والمُباركة فيه -حفظكم الله-: صلة الرحم؛ ففي الحديث الصحيح: «من سرَّه أن يُبسَط له في رزقه، وأن يُنسأ له في أجله، فليصل رحمَه». رواه البخاري.

وفي حديث عند أحمد: «تعلَّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامَكم؛ فإن صلة الرَّحِم محبَّةٌ في الأهل، ومثراةٌ في المال، ومنسأةٌ في العُمر». صحَّحه الألباني -رحمه الله-.

فلصلة الرَّحِم آثارٌ عجيبة، وثمارٌ مشهودةٌ من بسط الرزق، وزيادة العُمر، ودفع ميتة السُّوء، وغرس المحبة، وفي الحديث عند ابن حبان -وسنده صحيحٌ بشواهده-: «إن أعجل الطاعة ثوابًا: صلةُ الرَّحِم، حتى إن أهل البيت ليكونون فجَرَة فتنمُو أموالُهم، ويكثر عددُهم إذا تواصَلوا، وما من أهل بيت يتواصَلون فيحتاجُون».

٥- من الأسباب الجالبة للرزق والمُباركة فيه: الإنفاق في سبيل الله:

معاشر المسلمين: ومن عجائب حكمة الله وفضله: أن جعل الإنفاقَ من أسباب جلب الرزق وسَعَته؛ فمَن أنفقَ أخلفَ الله عليه، وبارَك له فيما عنده: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]. يُخلفه عليه في الدنيا بالبدل والبركة، وفي الآخرة بحُسن الجزاء وعظيم الثواب، وفي التنزيل العزيز: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

يقول ابن عباس -رضي الله عنهما-: «اثنان من الله، واثنان من الشيطان؛ الشيطان يعِدُكم الفقرَ يقول: لا تُنفقه وأمسكه لك فإنك تحتاج إليه، ويأمرُكم بالفحشاء، والله يعِدُكم مغفرةً منه على المعاصي والذنوب، وفضلاً في الرزق».

وفي الحديث القُدسي: «يا ابن آدم: أنفِق أُنفق عليك». رواه مسلم.

وفي الحديث الصحيح: «ما من يوم يُصبحُ فيه العباد إلا وفيه ملَكان ينزلان، فيقول أحدُهما: اللهم أعطِ مُنفقًا خلَفًا، ويقول الآخر: اللهم أعطِ مُمسكًا تلفًا». رواه البخاري.

فأنفقوا -عباد الله-، وأبشروا بالخلَف الواسع من فضل الله؛ بل لقد قال -عزَّ شأنُه-: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

ومن الأسباب الجالبة للرزق والمباركة فيه:

٦- الإحسان إلى الضعفاء والمحتاجين:

معاشر المسلمين: ومن أسباب الرزق وأسباب سعَته: الإحسان إلى الضعفاء والمحتاجين، وتفقُّد أصحاب الحوائج، وفي الحديث: «وهل تُنصَرون وتُرزَقون إلا بضُعفائكم!!». رواه البخاري.

وعن أبي الدرداء -رضي الله عنه- قال: سمعتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «ابغُوني في ضُعفائكم؛ فإنما تُرزَقون وتُنصَرون بضُعفائكم». رواه أبو داود، والترمذي.

وهذا يشملُ أصناف ذوي الحاجات؛ من الفقراء، والمساكين، والمرضَى، والغُرباء، ومن لا عائلَ له.

وإن أوضاعَ الأمة ومآسيها قد أوقعَت كثيرًا من إخواننا وجيراننا في أحوال وشدائد؛ فتفقدُوهم، وأحسنوا إليهم، وأنفقوا يُخلِف الله عليكم، ويُبارك لكم؛ بل إنكم بهذا تَستجلِبون نصرَ الله وعونَه وتأييدَه.

و من الأسباب الجالبة للرزق والمباركة فيه:

٧- الاستقامة على دين الله:

أيها المسلمون: وإن من أعظم أسباب جلب الرزق وبركته؛ بل لعله هو جماعُ الأسباب كلها: الاستقامة على دين الله، والعملُ بطاعته، واجتنابُ معاصيه ومناهيه؛ فما استُجلِبَت الأرزاق إلا بالطاعات، وما مُحِقَت إلا بالمعاصي والذنوب، وإن العبد ليُحرَم الرزقَ بالذنب يُصيبُه.

فالذنوبُ والمعاصي من أكبر الأبواب التي تُغلِقُ موارد الأرزاق على الفرد وعلى الأمة، بالذنوب والمعاصي تتعسَّر الأسباب، وتضيقُ الأبواب، وتُمحَقُ البركات: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦، ١٧].

إن نِعَم الله ما حُفظَ موجودُها بمثل الطاعة، ولا استُجلِب مفقودُها بمثل الطاعة، فما عند الله لا يُنال إلا بالطاعة، فمن أراد السَّعة في الرزق، والرَّغَد في العيش، والبركة في المال فليحفظ نفسَه عما يُؤثِمُه، وليمتثل أوامر ربه، وليجتنب نواهيَه، وليصُن نفسَه عن مواضع سَخَط الله.

باب العقيدة

مقدمة لباب العقيدة

إعداد / الرئيس العام

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

فلقد جرت عادة المصنفين من المتأخرين أن يدونوا مقدمة عن العلم وفضله وثمراته وما يتعلق به في صدر مصنفاتهم وذلك لفوائد منها:

أولا: أن يحصل طالب العلم تصوراً إجمالياً للموضوع قبل أن يدخل في تفاصيله فيعرف الوحدة الجامعة لمسائل هذا العلم فيأمن عندئذ من دخوله في مسائل ليست من مسائل العلم الذي قصد إليه .

ثانيا: أن يتحقق من فائدة العلم ونفعه لينشط في طلبه وتحصيله وليستعذب المشاق في سبيله.

هذا وقد استقر عمل المصنفين على ذكر مبادئ عشرة لكل علم تمثل مدخلا تعريفيا لطالب هذا العلم وقد جمعها بعضهم - كما فعل أبو العِرفان محمد بن علي الصبّان (ت:١٢٠٦هـ) - في قوله:

إن مبادِي كل فنٍّ عشرة
الحدُّ والموضوعُ ثم الثمرةْ
ونسبةٌ وفضلُهُ والواضعْ
والاسمُ لاستمدادُ حكمُ الشارعْ
مسائلٌ والبعضُ بالبعضِ اكتفى
ومن درى الجميعَ حازَ الشرفا

وسيأتي بيانها في مقالات تالية لكننا سنقدم الفضل والثمرة على باقي المبادئ لما فيهما من شحذ للهمم ونفع أعم لجميع قراء مجلتنا الغراء .

أولا: فضل علم التوحيد:

(أ) فضله من جهة موضوعه:

يقصد بفضل علم التوحيد مزيته وقدره الزائد على غيره من العلوم، وما ثبت في منزلته من فضيلة، وإذا كانت العلوم الشرعية كلها فاضلة لتعلقها بالوحي المطهر؛ فإن علم التوحيد في الذروة من هذا الفضل العميم؛ حيث حاز الشرف الكامل دون غيره من العلوم.

فمن المعلوم أن المتعلَّق يشرف بشرف المتعلَّق؛ فالتوحيد يتعلق بأشرف ذات، وأكمل موصوف، بالله الحي القيوم، المتفرد بصفات الجلال والجمال والكمال، ونعوت الكبرياء والعزة؛ لذا كان علم التوحيد أشرف العلوم موضوعًا ومعلومًا، وكيف لا يكون كذلك وموضوعه رب العالمين وصفوة خلق الله أجمعين - أي: الأنبياء والمرسلين - ومن موضوعات علم التوحيد مآل العباد إما إلى جحيم أو إلى نعيم، وهذا ما نعني به السمعيات؛ ولأجل هذا سماه بعض السلف بـ «الفقه الأكبر».

وتحقيق التوحيد هو أشرف الأعمال مطلقًا؛ ففي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أفضل الأعمال عند الله إيمانٌ لا شك فيه» وسئل النبي صلى الله عليه وسلم: «أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله»، وهو موضوع رسل الله أجمعين.

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى -: وجميع الرسل إنما دعوا إلى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) [الفاتحة: ٥]، فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته من أولهم إلى آخرهم؛ فقال نوح (عليه السلام) لقومه: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ) [الأعراف: ٥٩]، وكذلك قال هود وصالح وشعيب وإبراهيم. فقال الله تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) [النحل: ٣٦].

فأهم ما على العبد معرفته إذن هو التوحيد، وذلك قبل معرفة العبادات كلها حتى الصلاة؛ لأن التوحيد هو الأساس الذي تقوم عليه سائر أنواع وألوان العبادات، ولا يمكن أن يقوم الشيء إلا على أساسه؛ وبالتالي لابد من معرفة التوحيد أولا.

(ب) فضله من جهة معلومه:

إن معلوم علم التوحيد هو مراد الله الشرعي الدال عليه وحيه وكلامه الجامع للعقائد الحقة، كالأحكام الاعتقادية المتعلقة بالإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر والبعث بعد الموت.

ومعلوم علم التوحيد: هو الأحكام الاعتقادية المكتسبة من الأدلة المرضية من كتاب ناطق وسنة ماضية، وقطب رحى القرآن العظيم من فاتحته إلى خاتمته في تقرير معلوم التوحيد.

(ج) فضله من جهة الحاجة إليه:

أما فضل علم التوحيد باعتبار الحاجة إليه؛ فيظهر ذلك بالنظر إلى جملة أمور:

منها: أن الله تعالى طلبه، وأمر به كل مكلف، وأثنى على أهله، ومدح من توسل به إليه، ووعدهم أجرا عظيمًا، قال تعالى: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ) [محمد: ١٩]، وقال عز من قائل: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) [البينة: ٥].

ومنها: أن عقيدة التوحيد هي الحق الذي أرسلت من أجله جميع الرسل، قال تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) [النحل: ٣٦]. وقال سبحانه: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ

أخي الحبيب
قارئ مجلة التوحيد:

إيمانًا منا بأهمية العقيدة في حياة المسلمين، ورغبة في نشر العلم النافع، وحرصًا على سلامة المعتقد، نفسح المجال لباب جديد من أبواب المجلة عبر صفحات مجلات التوحيد ألا وهو باب العقيدة.

وإنني أشرف أن أسطر تلك المقدمة لباب العقيدة، وهو باب يكتبه مشكورًا فضيلة الرئيس العام، وصاحب فكرة كتابة مقدمة لهذا الباب هو الدكتور مرزوق عضو اللجنة العلمية بالمجلة.

وإنني أنتهز هذه الفرصة لأخبر القراء الأعزاء أني أحبكم في الله، داعيًا المولى سبحانه أن يجمعنا بين قلوبنا ويؤلف ذات بيننا على التوحيد الخالص.

وقد أشار شيخنا الدكتور عبد الله شاكر في الحلقة الأولى من باب العقيدة إلى فضل علم التوحيد، منوهًا بعظم قدره وعلوه على غيره من العلوم، ذاكرًا فضيلته ما ثبت في منزلته من فضل؛ إذ إن التوحيد يتعلق بأشرف ذات، وأكمل موصوف، بالله الحي القيوم، المتفرد بصفات الجلال والجمال والكمال والعظمة.

ثم عرَّج فضيلته على ثمرة هذا العلم، مبينًا أن التوحيد سبب في طيب العيش للإنسان، وانتظام أمر الحياة، بل إن قيام المدنية وازدهار الحضارة هو إحدى ثمرات التوحيد المباركة.

وأشار فضيلة الدكتور إلى أن ثمرة علم التوحيد تظهر من خلال معرفة الله مَعْرفةً يقينية، وأن انشراح الصدر، وطمأنينة القلب هي ثمرة حصول المعرفة الصحيحة بالله تعالى.

وإذا كنا عبر هذا الباب الجديد نحاول أن نضيف إليك أيها القارئ باستمرار أبوابًا جديدة ومتجددة حتى تكون مأدبة شهية، فمجلة التوحيد تهدف إلى نفع وإفادة كل نفس مؤمنة.

ندعو الله أن يحيينا على التوحيد، وأن يميتنا عليه. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

رئيس التحرير

﴿إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وهي حق الله على عباده، كما في حديث معاذ (رضوان الله عليه): أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا» وهي ملة أبينا إبراهيم (عليه السلام) التي أمرنا الله باتباعها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]، وهي أيضا دعوته (عليه السلام)، قال تعالى على لسانه: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

ومن فضل علم التوحيد أيضًا أن الله تعالى جعل الإيمان شرطا لقبول العمل الصالح، وانتفاع العبد به في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٤]، وأي حاجة أكثر من حاجة العبد إلى العمل الصالح، وأن يؤمن برب العالمين وأن يلقى الله عز وجل على ذلك؟! وقال سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ [الإسراء: ١٩].

فإذا جاء العبد بغير الإيمان، فقد خسر جميع عمله الصالح، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الزمرة: ٦٥].

ومما يبين فضل التوحيد من جهة الحاجة إليه أن سعادة البشرية في الدنيا والآخرة متوقفة على علم التوحيد، فحاجة العبد إليه فوق كل حاجة، وضرورته إليه فوق كل ضرورة؛ فلا راحة ولا طمأنينة ولا سعادة إلا بأن يعرف العبد ربه بأسمائه وصفاته وأفعاله من جهة صحيحة صادقة ناصحة، وهي جهة الوحي الرباني. يعني: ما ورد في كتاب اله وهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثانيا: ثمرة علم التوحيد:

ثمرة علم التوحيد بالنسبة للمكلف:

بالنسبة لثمرة التوحيد للمكلف في الحياة الدنيا أن التوحيد سبب في طيب العيش للإنسان، وانتظام أمر الحياة؛ بل إن قيام المدنية وازدهار الحضارة هي من ثمرات التوحيد المباركة؛ قال رب العالمين: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

إن الإيمان يثمر طمأنينة القلب وراحته وقناعته بما رزقه الله به، ويجعل العبد لا يتعلق بغير ربه ومولاه؛ وهذه هي الحياة الطيبة، فإن أصل الحياة الطيبة راحة القلب وطمأنينته، وعدم تشوشه مما يتشوش منه الفاقد للإيمان الصحيح، وفي (الصحيح): أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «عجبًا لأمر المؤمن؛ إن أمره كله خير؛ إن أصابته سرَّاء شكَر فكان خير له؛ وإن أصابته ضراء صبَر فكان خير له. وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

ولذلك قال بعض السلف: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - في قوله تعالى:

﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]، قال: «ما يصنع أعدائي به؟! أنا جنتي وبُستاني بصدري، أني رحت فهي معي لا تفارقني؛ إن حبسي خلوةٌ، وقتلي شهادة، وإخراجي في من بلدي سياحة».

ومظاهر الحياة الطيب التي خص الله بها عباده المؤمنين في الدنيا كثيرة:

فمنها: ولاية الله عز وجل.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ومنها: محبة الله عز وجل للمؤمنين، ومحبة الخلق لهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

ومنها: مدافعة الله عن المؤمنين، وإنجاؤه لهم:

إن الله عز وجل تكفل بنصر أوليائه المؤمنين على أعدائهم، قال سبحانه: (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُور) [الحديد: ٣٨]، ولم يذكر مَا يدفعه عنهم حتى يَكون أَفخم وأعظم وأعم وأتم، وقال سبحانه: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

ومنها: حصول نور البصيرة التي تفرق بين الحق والباطل:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩]، وهذا الفرقان فسره أهل العلم بالنور الذي يقذفه الله في قلب المؤمن، فيفرق

به بين الحق والباطل، والسنة والبدعة، قال تعالى: (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) [الشورى: ٥٢].

ثمرات التوحيد العلمية:

وتظهر ثمرة علم التوحيد العلمية من خلال الأمور التالية:

أولاً: معرفة الله معرفة يقينية:

إن سلوك منهج أهل السنة في تعلم علم التوحيد يوصل العبد -ولابد- إلى غاية المطالب، وأشرف المقاصد، وأول الواجبات وهو: معرفة الله تعالى بالتوحيد، وإفراده تعالى بالعبادة، والبراءة من الشرك، وكلما ازداد العبد علمًا بالتوحيد؛ ازداد رقيًا في مدارج الإيمان ومعارج اليقين، وارتقى من الإيمان المجمل إلى الإيمان المفصّل، ومن حال التقليد إلى حال اليقين والإذعان، والتصديق عن حجة وبرهان؛ بحيث يكون اعتقاده في ربه اعتقادًا صحيحًا موافقًا للواقع عن دليل صحيح، وهذا أفضل ما اشتغل بعلمه الإنسان.

والعلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته سبيل لرفع الدرجات وحصول البركات، قال تعالى: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) [المجادلة: ١١]، وهذا العلم الصحيح هو الذي يحل عقدة الأسئلة الكبرى التي ضلت البشرية في الاهتداء إلى جوابها؛ فتاهت في ضروب الإلحاد وعبادة الشجر والحجر والتثليث، وعبادة الهوى من دون الله تعالى؛ ففي القلب خلة لا يسدّها إلا الاعتقاد الحق، وحاجة لا تنقضي إلا بمعرفة الرب.

ثانيًا: انشراح الصدر، وطمأنينة القلب:

وهذا الأمر ثمرة حصول المعرفة الصحيحة بالله تعالى، والإجابة على أسئلة الفطرة حول الكون والحياة؛ فنفس لا إيمان فيها مضطربة قلقة تائهة خائفة؛ فأما اضطرابها، فلأنها كالسفينة تتقاذفها الأمواج العاتية، تتلقى عن كثيرين غير الله تعالى مناهجها وعقائدها؛ فتضطرب مرجعيتها ويختلف سبيلها وتتناقض مسيرتها، وأما النفس المؤمنة الموحِّدة فقد اتّحد مصدر ورودها وصدورها في كل أمر، فهي تتلقى من الله وعن الله، وهي تسير إلى الله تعالى، قال تعالى: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) [الزمر: ٢٩].

ثالثًا: حصول برد اليقين، واستقرار الفكر:

قال شيخ الإسلام: «والمقصود أن ما عند عوام المؤمنين وعلمائهم - أهل السنة والجماعة- من المعرفة واليقين والطمأنينة والجزم الحق والقول الثابت والقطع بما هم عليه، أمر لا ينازع فيه إلا من سلبه الله العقل والدين».

ثمرات التوحيد العملية:

المراد بثمرات التوحيد العملية: القوة التي تحمل الإنسان على السير إلى الله تعالى، والاجتهاد في عبادته، والتقرب إليه بما يرضيه، واجتناب ما يسخطه.

وتظهر ثمرة علم التوحيد العملية من خلال الأمور التالية:

أولًا: تحقيق الإخلاص، وأعمال القلوب على الوجه الصحيح:

إن الإخلاص هو حقيقة الدين، ومفتاح دعوة رسل الله أجمعين، وهو روح التوحيد، ولب الرسالة.

والإخلاص يتوقف -في حصوله وكماله- على معرفة العبد لربه، وتعظيمه، وتأليهه، ومعرفة أسمائه تعالى، وصفاته، وإحصائها، والتعبد لله بمقتضاها؛ فمن كان بالله أعرف كان له أخلص، وفيما عند الله تعالى أرغب، ومن عقوبته أرهب.

ثانيًا: اشتغال الجوارح بالطاعات:

إذا عمر الإخلاص قلب العبد، وتحققت أعمال القلوب من محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والتوكل على الله والصبر له، والخوف منه، والرجاء فيما عنده؛ انطلقت الجوارح -ولابد- في طاعة الله تعالى ولا يتخلف ذلك أبدًا، وفي الصحيح: «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»، فصلاح الظاهر تابع لصلاح الباطن في الأصل، والارتباط بينهما حاصل.

ثالثًا: الاجتماع، والوحدة، والائتلاف:

وهذا هو ما دعا رب العالمين عباده إليه؛ قال تعالى: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا) [آل عمران: ١٠٣]، وقال سبحانه: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [آل عمران: ١٠٥]، وقال صلى الله عليه وسلم: «من ترك الطاعة وفارق الجماعة، ثم مات؛ فقد مات ميتة جاهلية»، وقال صلى الله عليه وسلم: «الجماعة رحمة والفرقة عذاب».

وقد اقتفى السلف الصالح نصوص الكتاب والسنة؛ فكانوا مجتمعين على اعتقاد واحد وهو ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الواحد منهم ينقله إلى ما يأتي بعده، ولم يختلفوا في مسألة من مسائل الاعتقاد أبدًا.

هذا والله تعالى أسأل أن يرزقنا وإياكم الإخلاص والتوفيق إنه خير مسئول وأكرم مأمول والحمد لله رب العالمين.

القلوب والفتن

القلب القاسي

إعداد/ د. جمال المراكبي



الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده:

وبعدُ، فما يزال الحديث متصلاً عن القلوب وأقسامها، ونتناول في هذا العدد الحديث عن القلب القاسي وسبل علاجه، والله نسأل أن يصلح لنا قلوبنا ونياتنا وأن يرزقنا الإخلاص في الأقوال والأعمال.

عندما يمرض القلب ويقسو إلى أن يتحجر، عندها تختل معايير الإنسانية، فيُقال: فلان ميت القلب ولا يعرف الرحمة، وأن ترتبط رقة القلب بالضعف الذي لا يليق بالرجال، وأن يقول البعض: كن قاسي القلب تعش في هناء، ويقول الآخر: نحن في زمن إذا قيل للحجر كن إنسانًا لقال: عذرًا لست قاسيا لهذه الدرجة، كل هذا بسبب اختلاف المعايير الإنسانية.

هنا تكمن المشكلة، فأبعد القلوب من الله القلب القاسي، فالقلب القاسي قلب نُزعت منه الرحمة.

قال مالك بن دينار: «ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب، وما غضب الله عز وجل على قوم إلا نزع منهم الرحمة».

وعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قَالَتْ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم؟ فَقَالَ: تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ فَمَا نُقَبِّلُهُمْ؟! فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ» [صحيح البخاري ٥٩٩٨].

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَبَّلَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم، الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ، وَعِنْدَهُ الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ، جَالِسًا فَقَالَ الأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ» [صحيح البخاري ٥٩٩٧].

والقلب القاسي هو شر القلوب المفتونة بإغواء الشيطان.

قال الله تعالى: (لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) [الحج: ٥٣].

وقال تعالى: (فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ) [الزمر: ٢٢].

وهو القلب الميت الذي لا حياة به، فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذاته؛ ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه،

رضي ربه أم سخط، فهو متعبد لغير الله حبًا، وخوفا، ورجاءً، ورضًا، وسخطًا، وتعظيمًا، وذلاً. إن أحب أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، وإن منع منع لهواه. فهواه آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه. فالهوى إمامه، والشهوة قائده، والجهل سائقه، والغفلة مركبه. فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور. يُنادَى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد، فلا يستجيب للناصح، ويتبع كل شيطان مريد. الدنيا تُسخطه وتُرضيه. والهوى يصمّه عما سوى الباطل ويعميه، فالنار أولى به، وما خُلقت النار إلا لإذابة القلوب القاسية.

القلوب القاسية في آيات القرآن:

قال الله تعالى: (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) [البقرة: ٧٢- ٧٤].

بعد أن ذكر الله قصة البقرة، وكيف أنهم قتلوا نفسًا، وتدافعوا التهمة فيما بينهم، فأوحى الله إلى كليمه موسى أن يأمرهم بذبح بقرة، وكان ما ذكره الله تعالى في قصة البقرة، وكشف شخص القاتل، وما في القصة من آيات باهرات، ومع ذلك قست القلوب من بعدما رأت الآيات فهي كالحجارة أو أشد قسوة.

ولم يبين الله هنا في هذا الموضع سبب قسوة قلوبهم، ولكنه أشار إلى ذلك في مواضع أخر كقوله تعالى: (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [المائدة: ١٣].

وقوله تعالى: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) [الحديد: ١٦- ١٧].

قوله: (لِذِكْرِ الله)، الأظهر منه أن المراد خشوع قلوبهم لأجل ذكر الله، وهذا المعنى دل عليه قوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) [الأنفال: ٢] أي: خافت عند ذكر الله، فالوجل المذكور في آية الأنفال هذه، والخشية المذكورة هنا معناهما واحد.

وقيل: المراد بذكر الله القرآن، وعليه فقوله: (وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ) من عطف الشيء على نفسه مع اختلاف اللفظين، وعلى هذا القول، فالآية كقوله تعالى: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) [الزمر: ٢٣]، فالاقشعرار المذكور، ولين الجلود والقلوب عند سماع هذا القرآن العظيم المعبر عنه بأحسن الحديث، يُفسر معنى الخشوع لذكر الله وما نزل من الحق هنا كما ذكر. [أضواء البيان للشنقيطي].

وقوله: (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) فيه إشارة إلى أنه تعالى، يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضلتها، ويفرِّج الكروب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الوابل، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعدما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الإضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعَّال، وهو الحكم العدل في جميع الفعَال، اللطيف الخبير الكبير المتعال. [تفسير ابن كثير].

وقال الله تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [الأنعام: ٤٢- ٤٥].

قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ)، فكذبوا رسلنا، وجحدوا بآياتنا، (فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ) أي: بالفقر والمرض والآفات، والمصائب، رحمة منا بهم. (لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ) إلينا، ويلجأون عند الشدة إلينا.

(فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ) أي: تحجرت فلا تلين للحق. (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فظنوا أن ما هم عليه دين الحق، فتمتعوا في باطلهم برهة من الزمان، ولعب بعقولهم الشيطان.

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ) من الدنيا ولذاتها وغفلاتها. (حَتَّى إِذَا فَرِحُوا

﴿بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من كل خير، وهذا أشد ما يكون من العذاب، أن يؤخذوا على غرة، وغفلة وطمأنينة، ليكون أشد لعقوبتهم، وأعظم لمصيبتهم.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: اصطُلموا بالعذاب، وتقطعت بهم الأسباب ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على ما قضاه وقدَّره، من هلاك المكذبين. فإن بذلك تتبين آياته، وإكرامه لأوليائه، وإهانته لأعدائه، وصدق ما جاء به المرسلون. [تفسير السعدي].

فالآية الكريمة تصور لونًا من ألوان العلاج النفسي الذي عالج الله به الأمم التي تكفر بأنعمه، وتكذب أنبياءه ورسله؛ إذ إن الآلام والشدائد علاج للنفوس المغرورة بزخارف الدنيا ومتعها إن كانت صالحة للعلاج.

ولقد بيّن سبحانه أن تلك الأمم لم تعتبر بما أصابها من شدائد فقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

ولولا هنا للنفي، أي: أنهم ما خشعوا ولا تضرعوا وقت أن جاءهم بأسنا.

ثم بيّن -سبحانه- أن أمرين حالا بينهم وبين التوبة والتضرع عند نزول الشدائد بهم.

أما الأمر الأول: فهو قسوة قلوبهم، وقد عبّر -سبحانه- عن هذا الأمر الأول بقوله: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: غلظت وجمدت وصارت كالحجارة أو أشد قسوة.

وأما الأمر الثاني: فهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم السيئة، بأن يوحي إليهم بأن ما هم عليه من كفر وشرك وعصيان هو عين الصواب، وأن ما أتاهم به أنبياؤهم ليس خيراً لأنه يتنافى مع ما كان عليه آباؤهم.

ثم بين - سبحانه - أنه قد ابتلاهم بالنعم بعد أن عالجهم بالشدائد فلم يرتدعوا فقال -تعالى-: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾.

والمعنى: فلما أعرضوا عن النذر والعظات التي وجّهها إليهم الرسل، فتحنا عليهم أبواب كل شيء من الرزق وأسباب القوة والجاه. حتى إذا اغتروا وبطروا بما أوتوا من ذلك أخذناهم بغتة فإذا هم متحسرون يائسون من النجاة.

وفي الحديث: «إذا رأيت الله يُعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج» [مسند أحمد ١٧٣٤٩ وجود إسناده الألباني].

وقال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٢- ٢٣].

أفمن شرح الله - تعالى - صدره للإسلام، وجعله مستعدًا لقبول الحق فهو بمقتضى هذا الشرح والقبول صار على نور وهداية من ربه، كمن قسا قلبه وغلظ، وأصبح أسيرًا للظلمات والأوهام.

لاشك أنهما لا يستويان في عقل أيّ عاقل.

فالاستفهام للإنكار والنفي، و«من» اسم موصول مبتدأ، والخبر محذوف لدلالة قوله - تعالى -: (فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ الله).

أي: فهلاك وخزي لأولئك المشركين الذين قست قلوبهم من أجل ذكر الله - تعالى -، الذي من شأنه أن تلين له القلوب، ولكن هؤلاء الكافرين إذا ما ذكر الله - تعالى -، اشمأزت قلوبهم، وقست نفوسهم، لانطماس بصائرهم، واستحواذ الشيطان عليهم.

ومنهم من جعل « من » في قوله (مِّن ذِكْرِ الله) بمعنى عن. أي: فويل للقاسية قلوبهم عن قبول ذكر الله وطاعته وخشيته. [الوسيط لسيد طنطاوي].

كيف يستشعر المسلم قسوة قلبه وكيف يعالجها؟

هناك علامات لقسوة القلب:

منها: التكاسل والتثاقل عن الطاعات وأعمال الخير والبر:

كالصلاة المفروضة يتشاغل عنها ولا يستشعر الخشوع فيها فتكون مجرد حركات لا اطمئنان فيها، يضيق بها ويريد قضائها، ويتثاقل عن النوافل، ويرى الفرائض والواجبات التي فرضها الله عليه كأنها أثقال ينوء بها ظهره، ويرى الصدقة مكوسًا يسعى للتفلت منها ولا ينشرح لها صدره.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وقال الله تعالى ﴿مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

وقال رَسُول الله صَلى اللهُ عَلَيْه وَسَلَمَ: (مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ ثُدِيِّهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا سَبَغَتْ أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ وَتَعْفُوَ

أَثَرَهُ، وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا فَهُوَ يُوَسِّعُهَا وَلَا تَتَّسِعُ) [صحيح البخاري ١٤٤٣].

ثانيًا: عدم التأثر بآيات القرآن الكريم والمواعظ والذكر:

فهو يسمع آيات الوعد والوعيد فلا يتأثر ولا يخشع قلبه، كما أنه يغفل عن قراءة القرآن، وعن سماعه ويجد ثقلاً وانصرافاً عنه، مع أن الله تعالى يقول: (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ)، ومدح الله المؤمنين بقوله: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) [الأنفال: ٢].

وعاتب الله المؤمنين بقوله: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) [الحديد: ١٦].

ثالثًا: عدم تأثره بالحوادث كالموت والآيات الكونية:

فهو لا يتأثر بالموت ولا بالأموات يتساقطون من حوله، كأنه ضمن الخلود في الدنيا، ويمشي في المقابر وكأنه في الأسواق، وكفى بالموت واعظاً.

وقال رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أكثروا ذكر هازم اللذات، يعني الموت» [سنن الترمذي ٢٣٠٧ وصححه الألباني].

وبكى على القبر وقال: «لمثل هذا فأعدوا» [سنن ابن ماجه ٤١٩٥ وحسنه الألباني].

رابعًا: زيادة ولعه بملذات الدنيا وإيثارها على الآخرة:

فتصبح الدنيا همه وشغله الشاغل، وتكون مصالحه الدنيوية ميزاناً في حبه وبغضه وعلاقاته مع الناس، فيغرق في اللهو واللعب ويشغل قلبه الحقد والحسد والأنانية والبخل والشح.

خامسًا: يضعف في قلبه تعظيم الله جل جلاله:

وتذهب الغيرة، ولا يغضب إذا انتهكت محارم الله، فيرى المنكرات، ويسمع الموبقات وكأن شيئاً لم يكن، لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، ولا يبالي بالمعاصي والذنوب.

سادسًا: الوحشة وضيق الصدر والشعور بالقلق والضيق: لا يكاد يهنأ بعيش أو يشعر بطمأنينة؛ فيظل قلقاً متوتراً من كل شيء.

أسباب قسوة القلب:

أولاً: تعلق القلب بالدنيا وزخرفها:

قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ كانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ الله غناهُ في قَلْبِه، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كانت الدُّنْيا هَمَّهُ جَعَلَ الله فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِه مِنَ الدُّنْيا إلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ». [سنن الترمذي ٢٤٦٥ وصححه الألباني].

ويقسو القلب من أشياء إذا جاوزت قدر الحاجة: الأكل والنوم والكلام والمخالطة، والجدل فيما لا يفيد والتعصب المذهبي.

ثانيًا: الغفلة عن ذكر الله:

قال الله تعالى: (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (النحل: ١٠٨).

قال بعض العلماء: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم، فإن القلب القاسي بعيد عن الله عز وجل، ولا تنظروا إلى ذنوب العباد كأنكم أرباب وانظروا في ذنوبكم فإنكم عبيد، والناس رجلان مبتلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء واحمدوا على العافية.

وقال ابن القيم: ومن تأمل حال أكثر الخلق وجدهم ممن غفلت قلوبهم عن ذكر الله تعالى، واتبعوا أهواءهم، وفرطوا فيما ينفعهم واشتغلوا بما لا ينفعهم بل يعود بالضرر عاجلاً وآجلاً، قال الله تعالى: (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) [الكهف: ٢٨].

ثالثا: مصاحبة أصدقاء السوء، في الأجواء الفاسدة:

فالإنسان سريع التأثر بمن حوله، فالشخص الذي يعيش في أوساط المعاصي والمنكرات، ويجالس أناساً أكثر حديثهم عن اللذات المحرمة والنساء، ويكثرون المزاح والضحك والنكات وسماع الغناء ورؤية المسلسلات، هذا الشخص لا بد أن يتأثر بهؤلاء الجلساء فيقسو قلبه ويغلظ، ويعتاد على هذه المنكرات.

رابعا: نسيان الموت وسكراته، والقبر وأهواله وعذابه ونعيمه، ووضع الموازين، ونشر الدواوين، والمرور على الصراط، ونسيان النار وما أعد الله فيها لأصحاب القلوب القاسية.

خامسا: الاشتغال بما يفسد القلب ويقسيه:

ومفسدات القلب كثيرة منها: كثرة الاختلاط، وركوب الأماني، والتعلق بغير الله، وكثرة الطعام، وكثرة النوم، والركون إلى الدنيا والإخلاد إلى الأرض.

نسأل الله أن يصلح قلوبنا ويهدي نفوسنا، ويصلح لنا أعمالنا وأخلاقنا، والحمد لله رب العالمين.



الدعاء.. قرع لأبواب السماء

الحلقة الثانية

إعداد/ أحمد صلاح

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه والتابعين، وبعدُ:

فقد سبق في العدد الماضي أن تناولنا أهمية الدعاء، ومنزلته العظيمة في الإسلام، وبيّنا أنه أعلى مراتب العبادة، بل هو العبادة كلها، ففي الحديث عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: «وقال ربكم ادعوني أستجب لكم» [سنن أبي داود ١٤٨١ وصححه الألباني].

وقد تناولنا فيما سبق بعض آداب الدعاء وأحكامه التي ينبغي للداعي أن يتعلمها ويتأدب بها، حتى يكون ذلك أدعى لقبول دعائه وإجابة طلبه ومناجاته، ونكمل في هذا العدد فنقول وبالله تعالى التوفيق:

١٠- أن يدعو العبد ربه تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى.

ودليل ذلك قوله تعالى: «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها»، فإن معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته مما يزيد الإيمان ويقوي اليقين، ومعرفة العبد بها تتضمن أنواع التوحيد الثلاثة: ربوبية، ألوهية، أسماء وصفات، وهذه الأنواع هي روح الإيمان وأصله وغايته.

ومنهج النبي صلى الله عليه وسلم في الدعاء استهلاله بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا، وأن يتخير من أسماء الله وصفاته ما يناسب حاجته، كما في الصحيحين من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه: فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم. [صحيح البخاري ٨٣٤].

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أتى مريضًا قال: أذهب الباس، رب الناس، اشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقمًا. [صحيح البخاري ٥٦٧٥].

وروى أحمد في مسنده (٤٣١٨)، وابن حبان في صحيحه، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما قال عبدٌ قط إذا أصابه همٌ أو حزن: اللهم إني عبدك وابنُ عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حُكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لكَ، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور بصري وجلاء حُزني وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وأبدله مكانَ حزنه فرحًا، قالوا: يا رسول الله، ينبغي لنا أن نتعلم هذه الكلمات؟ قال: أجل، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن. والحديث صححه الألباني في صحيح الترغيب ١٨٢٢.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن علمت أي ليلة ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: قولي: اللهم إنك عفو تُحب العفو فاعف عني. [سنن ابن ماجه ٣٨٥٠ وصححه الألباني].

أي: من صفاتك العفو، وأنت تحب العفو، فأسألك بما تحبه، وما أنت متصف به، أن تعفو عني، فالسؤال يكون بذكر الصفة التي يتصف به الله تعالى، والتي يحبها في عباده.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا كربه أمرٌ قال: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث. [رواه الترمذي (٣٥٢٤) وحسنه الألباني].

١١- أن يتحرى العبد أوقات الإجابة، فإن ذلك أدعى للقبول وعدم الرد:

وهناك أوقاتٌ كثيرةٌ يُستحب فيها الدعاء ويُجاب -بإذن الله-، منها مثلاً:

ا- جوف الليل وعقب الصلوات المكتوبة:

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: استيقظ النبي صلى الله عليه وسلم ليلة فزعًا وهو يقول: سبحان الله، ماذا أنزل الله من الخزائن، وماذا أنزل من الفتن، ومن يوقظ صواحب الحجرات يقمن فيصلين؟! [صحيح البخاري ١١٢٦].

قال الحافظ في الفتح: فيه استحباب الضراعة والدعاء وقت الليل رجاءَ الإجابة.

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، أيُّ الدعاء أسمع؟ قال: جوف الليل الأخير، ودبر الصلوات المكتوبات. [رواه الترمذي (٣٤٩٩) وحسنه الألباني].

قال مجاهد رحمه الله: إن الصلوات جُعلت في خير الساعات، فعليكم بالدعاء خلف الصلوات.

ب- بين الأذان والإقامة:

عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا يُردُّ الدعاءُ بين الأذان والإقامة. [رواه أبو داود (٥٢١) وصححه الألباني].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة. [صحيح البخاري ٦١٤].

جـ- عند نزول المطر:

عَنْ أَبِى حَازِمٍ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: «ثِنْتَانِ لاَ تُرَدَّانِ، أَوْ قَلَّمَا تُرَدَّانِ: الدُّعَاءُ عِنْدَ النِّدَاءِ وَعِنْدَ الْبَأْسِ حِينَ يُلْحِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا». قَالَ مُوسَى: وَحَدَّثَنِى رِزْقُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِى حَازِمٍ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ عَنِ النَّبِىِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ: وَوَقْتَ الْمَطَرِ. [رواه أبو داود (٢٥٤٢) وصححه الألباني].

د- الدعاء في السجود:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجدًا، فأكثروا الدعاء. [صحيح مسلم ٤٨٢].

هـ- في يوم عرفة ويوم الجمعة:

أما ما جاء في يوم عرفة، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: خيرُ الدعاء دعاءُ يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إلهَ إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. [رواه الترمذي ٣٥٨٥ وحسنه الألباني].

وأما يوم الجمعة، فقد روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن في الجمعة لساعة لا يوافقها مسلم يسأل الله فيها خيرًا إلا أعطاه إياه. [صحيح مسلم ٨٥٢].

و- في الصيام والسفر:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ثلاث دعوات مستجابات: دعوة الصائم، ودعوة المظلوم، ودعوة المسافر. [رواه أبو داود ١٥٣٦ وحسنه الألباني].

ز- عند صياح الديكة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا سمعتم صياح الديكة، فاسألوا الله من فضله، فإنها رأت مَلَكًا. [صحيح البخاري ٣٣٠٣].

قال القاضي عياض رحمه الله: كان السبب فيه رجاء تأمين الملائكة على دعائه، واستغفارهم له، وشهادتهم له بالإخلاص.

ح- عند القلق من النوم ليلاً:

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من تعارَّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو دعا استُجيب له، فإن توضأ وصلى قُبلت صلاته. [صحيح البخاري ١١٥٤].

ط- عند حضور الميت والجنازات:

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي سلمة وقد شق بصره فأغمضه، ثم قال: إن الروح إذا قُبض تبعه البصر، فضجَّ ناس من أهله، فقال صلى الله عليه وسلم: لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون، ثم قال: اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وأفسح له في قبره ونور له فيه. [صحيح مسلم ٢١٦٩].

والحمد لله رب العالمين.

واحة التوحيد

من دلائل النبوة

إخباره عن انتهاء ملك قيصر وكسرى

عن جابر بن سمرة أن رسول الله صلى الله عله وسلم قال: «إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلا كِسْرَى بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلا قَيْصَرَ بَعْدَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» [سنن الترمذي ٢٢١٦ وصححه الألباني].

من نور كتاب الله

أسباب دخول الجنة

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

[هود: ٢٣].

العلماء يوصون باتباع طريق السلف

عن نوح الجامع قال: قلت لأبي حنيفة: ما تقول فيما أحدث الناس من الكلام في الأعراض والأجسام؟ فقال: مقالات الفلاسفة، عليك بالأثر وطريقة السلف وإياك وكل محدثة فإنها بدعة.

[ذم الكلام للهروي ٥/ ٢٠٧].

أحاديث باطلة لها آثار سيئة

«إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصوم ولا بصلاة، ولكن بسلامة الصدور، ونصيحة المسلمين». هو من وضع الصوفية، ويحض على ترك العمل الذي هو سبب لدخول الجنة.

[السلسلة الضعيفة للألباني ٣/ ٦٦٨]

حكم ومواعظ

عن أبي سليمان الدَّاراني قال: من اشتغل بنفسه شُغل عن الناس، ومن اشتغل بربه شُغل عن نفسه وعن الناس. [سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٨٥].

من أقوال السلف

عن مالك بن أنس -رحمه الله- أنه سئل عن الكلام والتوحيد؟ فقال مالك: مُحَال أن يُظن بالنبي -صلى الله عليه وسلم- أنه علم أمته الاستنجاء ولم يعلمهم التوحيد.

[ذم الكلام للهروي:١ /٢١٠].

إعداد: علاء خضر

من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم

من حقوق المسلم على أخيه المسلم

عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لِلْمُؤمِنِ على الْمُؤمن ستّ خِصَال: يعودهُ إذا مرض، ويشهده إذا مَاتَ، ويجيبه إذا دَعَاهُ، وَيسلم عَلَيْه إذا لقيه، ويشمته إذا عطس، وَيَنْصَح لَهُ إذا غَابَ أو شَهد». [سنن الترمذي ٢٧٣٧ وصححه الألباني].

من جوامع الدعاء

عَنْ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ الله عنهما- أَنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ: «الْحَمْدُ لِلَّه الَّذِي كَفَانِي وَآوَانِي وَأَطْعَمَنِي وَسَقَانِي، وَالَّذِي مَنَّ عَلَيَّ فَأَفْضَلَ، وَالَّذِي أَعْطَانِي فَأَجْزَلَ، الْحَمْدُ لِلَّه عَلَى كُلِّ حَالٍ، اللَّهُمَّ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ وَإِلَهَ كُلِّ شَيْءٍ أَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ» [سُنَن أَبِي داود ٥٠٦٠ وصَححه الألبَاني].

من غريب الأحاديث

دثر: فيه الحديث «ذهب أهل الدثور بالأجور» [صحيح مسلم ١٠٠٦]. الدثور: جمع دثر، وهو المال الكثير، ويقع على الواحد والاثنين والجميع. [كشف المشكل لابن الجوزي ١/ ٢٤٤].

فصاحة النساء

مرّت أعرابيّة بقوم من بني نمير، فأداموا النظر إليها، فقالت: يا بني نمير، والله ما أخذتم بواحدة من اثنتين: لا بقول الله ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾، ولا بقول جرير:

فغضّ الطّرف إنك من نمير
فلا كعبا بلغت ولا كلابا

فاستحيا القوم من كلامها وأطرقوا. [عيون الأخبار ١/ ٣٩٧].

الصبر على الحكام

عن العجاج قال: «قال لي أبو هريرة: ممن أنت؟ قال: قلت من أهل العراق. قال: يوشك أن يأتيك بُقعانُ الشام فيأخذوا صدقتك، فإذا أتوك فتلقّهم بها؛ فإذا دخلوها فكن في أقاصيها، وخلّ عنهم وعنها. وإياك أن تسبَّهم، فإنك إن سببتهم ذهب أجرك، وأخذوا صدقتك. وإن صبرت جاءتك في ميزانك يوم القيامة» [عيون الأخبار ١/ ٣].

من فضائل الصحابة

عن مالك بن أنس رحمه الله قال: كان السلف يعلّمون أولادهم حب أبي بكر وعمر كما يعلمونهم السورة من القرآن. [مسند الموطأ ١/ ١٥].

دراسات شرعية

أثر السياق في فهم النص

تأثير قرائن السياق على الأحكام الفقهية

الحلقة (٥٩)

إعداد/ متولي البراجيلي

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد، فقد ذكرنا في الحلقة السابقة قرينة من أهم قرائن السياق - حسب مفهومها الواسع الذي سبق وإن أشرنا إليه كثيرًا - ألا وهي عدم التعارض بين النصوص.

والتعارض: هو أن يتقابل الدليلان بحيث يخالف أحدهما الآخر، وشرع الله تعالى مبرأ من هذا التعارض. فأدلة الشرع حق، والحق لا يتناقض، بل يصدق بعضه بعضا.

وتكلمنا عن أسباب هذا التعارض - الموهوم-، والطرق المعينة على دفعه، والخطوات التي تتخذ لدفع هذا التعارض؛ فقلنا: إن الخطوة الأولى: هي الجمع بين الأدلة ما أمكننا ذلك، وضربنا أمثلة توضح كيفية الجمع.

ونستأنف البحث عن باقي خطوات دفع التعارض.

الخطوة الثانية: دفع التعارض بالنسخ:

أولاً: تعريف النسخ:

هو رفع الحكم الثابت بخطاب متقدم بخطاب متراخ عنه. (روضة الناظر لابن قدامة ٢١٩/١).

وبتعريف آخر، هو: رفع حكم شرعي بدليل شرعي متراخٍ.(شرح الكوكب المنير ٥٢٦/٣).

ويُعرف النسخ بأمور:

أولاً: دلالة اللفظ عليه صراحة:

١- ويكون ذلك في القرآن كقوله تعالى: (ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ) [الأنفال: ٦٦]، فلفظ الآية يدل على تأخر الخطاب الشرعي المقترن بها، وكذلك قوله تعالى: (فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ) [البقرة: ١٨٧].

٢- وفي السنة كتصريح النبي صلى الله عليه وسلم كما بحديث ابن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فأمسكوا ما بدا لكم، ونهيتكم عن النبيذ إلا في سقاء، فاشربوا في الأسقية كلها، ولا تشربوا مسكرًا». (صحيح مسلم ح ١٩٧٧). وأما فعل النبي صلى الله عليه وسلم فقد يكون ناسخًا- بضوابط- وهذا هو الظاهر من كلام الإمام أحمد، واختاره بعض الشافعية، ومنعه ابن عقيل من الحنابلة والمجد بن تيمية، وقال: إن دلالات الفعل دون دلالات صريح القول، وقد أشار إلى ذلك الشوكاني في إرشاد الفحول، والمسألة فيها توسع. انظر شرح الكوكب المنير (٥٦٣/٣، ٥٦٤)، وإرشاد الفحول (٥٥/٢)].

٣- وفي أقوال الصحابة كتصريح الصحابي بالنسخ: كقول عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخن بخمس معلومات، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن فيما يقرأ من القرآن». (صحيح مسلم ح ١٤٥٢) .

[فائدة: قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن فيما يقرأ من القرآن. ليس معناه على ظاهره - كما يُظن - وإنما معناه قرب عهد النسخ من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى صار بعض الصحابة الذين لم يبلغهم النسخ يقرأه على أنه لم يُنسخ. فلما بلغهم النسخ بعد ذلك رجعوا عن قراءته، وأجمعوا على أن هذا لا يُتلى.

وهذا قسم من أقسام النسخ: وهو نسخ التلاوة وبقاء الحكم، ونظير ذلك نسخ آية رجم الزاني المحصن وبقاء الحكم (انظر معالم السنن للخطابي ١٨٨/٣ وشرح النووي على مسلم ٢٩/١٠).

ثانيًا: قرينة في سياق النص:

كقوله صلى الله عليه وسلم: «خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً...» الحديث. فهذا يشير إلى المنسوخ، وهو قوله تعالى: (وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ) الآية [النساء: ١٥]. (تيسير أصول الفقه للجديع ٨٤/٣).

ثالثًا: بمعرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ، أي المتقدم والمتأخر، وهذا من الصعوبة بمكان إن لم يوجد صريحًا في النص؛ لأن الصحابة يروي بعضهم عن بعض، فيروي المتأخر إسلامه عن المتقدم إسلامه دون أن يصرح بمن تحمل عنه الحديث، وهذا لا يقدح في صحة الحديث؛ لأن الصحابة كلهم عدول، كما هو مقرر عند أهل العلم، ومما يندرج تحت هذا: أن الأحكام الواقعة في حجة الوداع أو بعدها مما يعارض أحكامًا غير معلومة الناسخ فما ورد في تلك الحجة أو بعدها ناسخ لتلك الأحكام، لأن في تلك الحجة كمال الدين. [تيسير أصول الفقه للجديع ٨٥/٣].

رابعًا: بالإجماع على أن هذا الحكم منسوخ، كنسخ وجوب صوم يوم عاشوراء بصوم شهر رمضان. [الإجماع يكون مبينًا لنص الناسخ المتأخر وليس الإجماع هو الناسخ، لأنه كما هو معلوم لا نسخ بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم].

ثانيًا: أمثلة على دفع التعارض بالنسخ:

١- ما بين آيتين:

قوله سبحانه وتعالى في عدة المتوفى عنها زوجها: (وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٍۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٍۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (البقرة: ٢٤٠). وقوله تعالى: (وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجًا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٍ وَعَشۡرًاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ) (البقرة: ٢٣٤)، فالآية الأولى تبين أن المرأة كانت تعتد في بيت زوجها سنة إذا مات عنها، ثم نسخ ذلك بالآية الثانية، وقد أورد الطبري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما - فكان الرجل إذا مات وترك امرأته اعتدت سنة في بيته، ينفق عليها من ماله ثم أنزل الله تعالى ذكره بعدُ: (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا)، فهذه عدة المتوفى عنها زوجها، إلا أن تكون حاملاً فعدتها أن تضع ما في بطنها. (تفسير الطبري: ٢٥٥/٥)، وكذلك أورد بسنده عن الضحاك: كان الرجل إذا توفي أنفق على امرأته في عامه إلى الحول، ولا تتزوج حتى تستكمل الحول وهذا منسوخ. (السابق).

كما أن الآية الأولى بها حكم ثانٍ منسوخ وهو الوصية للزوجات، فقد نسخ هذا الحكم بآية الميراث بقوله تعالى: (وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ) (النساء:١٢)، وأورد الطبري بسنده عن عكرمة والحسن البصري قالا: (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج) نسخ ذلك بآية الميراث، وما فرض لهن فيها من الربع والثمن، ونسخ أجل الحول أن جعل أجلها أربعة أشهر وعشرا. (السابق ٢٥٧/٥).

قلت: وهذا مروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في سنن أبي داود (انظر صحيح سنن أبي داود ح ١٩٨٩)، وإن كان ثمة قول آخر عن الآية الأولى أنه لم ينسخ منها شيء وأنها ثابتة الحكم، أورده الطبري عن مجاهد في قول الله: (وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجًا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٍ وَعَشۡرًا) (البقرة: ٢٣٤).

قال: كانت هذه للمعتدة، تعتد عند أهل زوجها، واجباً ذلك عليها، فأنزل الله: (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج) إلى قوله (من معروف). قال: جعل الله لهم تمام السنة، سبعة أشهر وعشرين ليلة، وصية، إن شاءت سكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت، وهو قول الله تعالى ذكره: (غير إخراج فإن خرجن

فلا جناح عليكم)، قال: والعدة كما هي واجبة. (تفسير الطبرى٥/٢٥٨).

ورجح الطبري أن النسخ واقع في العدة وفي الوصية، فنسخت الوصية بآية الميراث، وأبطل مما كان جعل لهن من سكنى حول (سنة) سبعة أشهر وعشرين ليلة، وردهن إلى أربعة أشهر وعشر، على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ثم أورد بسنده عن فريعة أخت أبي سعيد الخدري -رضي الله عنهما -: أن زوجها خرج في طلب عبد له، فلحقه بمكان قريب فقاتله، وأعان عليه أعبد معه فقتلوه، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن زوجها خرج في طلب عبد له، فلقيه علوج (العلج: هو الرجل من كفار العجم) فقتلوه، وإني في مكان ليس في أحد غيري، وإن أجمع لأمري أن أنتقل إلى أهلي؛ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بل امكثي مكانك حتى يبلغ الكتاب أجله»، قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرًا. (انظر تفسير الطبري ٥/٢٥٩، وصحيح سنن أبي داود ح ١٩٩٢).

[فائدة: فإن قيل: إن الآية الناسخة متقدمة في سورة البقرة، آية ٢٣٤، والآية المنسوخة متأخرة، آية ٢٤٠. والناسخ ينبغي أن يكون متأخراً عن المنسوخ؟

قيل: هو في التنزيل متأخر وفي التلاوة متقدم. فإن قيل: فلمَ قدم في التلاوة مع تأخره في التنزيل؟ قيل: ليسبق القارئ إلى تلاوته ومعرفة حكمه حتى إن لم يقرأ ما بعده من المنسوخ أجزأه» (النكت والعيون للماوردي ١/٣٠٢).

٢- النسخ ما بين آية وحديث:

قوله سبحانه وتعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (البقرة ١٨٧)، فالآية ناسخة لحكم سابق - لكن هذا الحكم لم يرد في القرآن- وإنما كان ثابتا بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، فنزلت الآية ناسخة له، وهذا الحديث أخرجه البخاري بسنده عن البراء رضي الله عنه، قال: كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إذا كان الرجل صائمًا، فحضر الإفطار، فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائمًا، فلما حضر الإفطار أتى امرأته، فقال لها: أعندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لك، وكان يومه يعمل، فغلبته عيناه، فجاءته امرأته، فلما رأته قالت: خيبة لك، فلما انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٧) ففرحوا بها فرحًا شديدًا، ونزلت: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ (البقرة: ١٨٧) (صحيح البخاري ح ١٩١٥).

وأخرج البخاري أيضًا بسنده عن البراء رضي الله عنه: «لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم، فأنزل الله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٧) (صحيح البخاري ح ٤٥٠٨).

[ملاحظات: ١- المثال المضروب من نسخ ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم في أول أمر الصيام، يُعد من السنة التقريرية؛ إذ كانوا يفعلون ذلك بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معهم، ولم ينكر عليهم صلى الله عليه وسلم.

٢- لا يوجد تعارض بين الآية والحديث - لأن هذا من النسخ الذي جاء بنص، وهذا القسم من النسخ لا إشكال فيه، وليس هذا من باب التعارض، ولكن ذكرته من باب تمام الفائدة، وللتوسع في النسخ ومسائله ينظر في كتابي دراسات في أصول الفقه ١٥٥-١٧٠].

٣- النسخ ما بين حديثين:

حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إنما الماء من الماء). (صحيح مسلم). والماء الأول في الحديث هو ماء الغسل لإزالة الجنابة، وأما الماء الثاني فهو المني. وهذا من باب الجناس التام، والمعنى: أنه لا غسل على من جامع إلا بنزول المني.

وكذلك ما ورد عن أبي كعب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: في الرجل يأتي أهله ثم لا يُنزل، قال: يغسل ذكره ويتوضأ. (صحيح مسلم).

الحديث المعارض: حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا جلس بين شعبها الأربع، ثم جهدها، فقد وجب عليه الغسل. (متفق عليه)، وفى رواية مسلم: «وإن لم يُنزل».

وجه التعارض:

في الحديثين الأولين يقول النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا غسل للجنابة على من جامع أهله ثم لم يُنزل المني. بينما في حديث أبى هريرة رضي الله

عنه أوجب النبي صلى الله عليه وسلم الغسل على من جامع أهله وإن لم ينزل المني.
ولا نستطيع هنا أن نجمع بين الأحاديث، فإما الاغتسال أو عدم الاغتسال.

دفع التعارض:

أولا: التأكد من صحة الأحاديث: الأحاديث الثلاثة في الصحيح.

ثانياً: حديث أبي هريرة رضي الله عنه ناسخ للحديثين الأولين وما في معناهما.

قال النووي: العمل على هذا الحديث (حديث أبي هريرة رضي الله عنه)، وأما حديث (الماء من الماء) فالجمهور من الصحابة ومن بعدهم قالوا: إنه منسوخ (شرح النووي على مسلم ٣٦/٤).

ويؤكد هذا ما ورد عن أبي بن كعب رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما جعل ذلك رخصة للناس في أول الإسلام، كقلة الثياب، ثم أمر بالغسل، ونهى عن ذلك. قال أبو داود: يعني: الماء من الماء (صحيح سنن أبي داود وغيره).

وقد أورد الطحاوي في شرح معاني الآثار عدة أحاديث وآثار في هذه المسألة، ومنها أن عمر لما اختلف الصحابة في هذه المسألة أرسل من يسأل أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، فقالت عائشة رضي الله عنها: إذا جاوز الختانُ الختانَ فقد وجب الغسل. (انظر شرح معاني الآثار ٥٣/١-٦١).

تنبيه: حديث (إنما الماء من الماء) ما نُسخ فيه هو مفهوم المخالفة فقط، ولم يُنسخ منطوق الحديث، فالمنطوق: وهو إيجاب الغسل بنزول المني، هذا لا خلاف فيه. أما مفهوم المخالفة وهو عدم إيجاب الغسل عند عدم نزول المني، فهو الذي نُسخ.

ثالثا: الترجيح:

هو تقوية أحد الدليلين عن الآخر، ولا يكون إلا مع وجود التعارض، ولا يصار إليه إلا بعد محاولة الجمع بين الأدلة المتعارضة - كما سبق-، فكما علمنا فإن الجمع مقدم على الترجيح، ولا يجوز ترجيح أحد الدليلين المتعارضين على الآخر بدون دليل؛ إذ إن ترجيح أحد الدليلين المتعارضين عن الآخر بدون دليل تحكم، وهو باطل: فلا يجوز في الشرع التخير بالتشهي والهوى بلا دليل ولا برهان.

ومحل الترجيح هو الظنيات، حيث إن التعارض لا يكون إلا بين دليلين ظنيين فقط، فلا يمكن التعارض بين دليلين قطعيين اتفاقا. فكذلك الترجيح لا يكون إلا بين دليلين ظنيين: فلا مدخل للترجيح في الأدلة القطعية؛ لأن الترجيح فرع التعارض. (انظر فتاوى ابن تيمية ١٣/ ١١٠، ١١١، ١٢٠، شرح الكوكب المنير ٦٠٧/٤).

[فائدة: ذكرنا أن التعارض لا يكون إلا بين دليلين ظنيين فقط. فهذا يتطلب - باختصار- معرفة ما هو الدليل الظني؟

الأدلة تنقسم إلى قسمين من ناحية الثبوت:

١- دليل قطعي الثبوت: وهو ما نقل إلينا بالتواتر من قرن إلى قرن، حتى وصل إلينا، وبالتالي فإن القرآن كله قطعي الثبوت.

٢ - دليل ظني الثبوت:

أما السنة فمنها ما هو قطعي الثبوت، ومنها ما هو ظني الثبوت. فالأحاديث المتواترة قطعية الثبوت؛ لأنها نقل جمع عن جمع في كل طبقة من طبقات السند، وأحاديث الآحاد ظنية الثبوت؛ لأنها لم يتحقق فيها شرط المتواتر - من ناحية العدد - مع ملاحظة أن السنة كلها متواترة أو أحادية يجب العمل بها، وإن فائدة هذا التقسيم تكون عند التعارض، وعدم إمكانية الجمع، فيُلجأ إلى الترجيح، والتواتر والآحاد من أوجه الترجيح الكثيرة.

وكذلك تنقسم الأدلة من ناحية القطع إلى قسمين: قطعي الدلالة، ظني الدلالة، وهذا يكون في القرآن وفي السنة:

١- دليل قطعي الدلالة: وهو ما دل على معنى متعين فهم منه (معنى واحد) ولا يحتمل تأويلا، ولا مجال لفهم معنى غيره (انظر علم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف صـ ٣٥)؛ مثال ذلك، قوله تعالى: (ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ) (النور: ٢)، فهذا نص قطعي الدلالة في حد الزنا، لا وجه للخلاف فيه بين أحد من أهل العلم.

٢- دليل ظني الدلالة: وهو ما دل على معنى، ولكن يحتمل أن يُصرف هذا المعنى أو يؤول أو يراد معنى غيره. (انظر المرجع السابق).

مثال ذلك: قوله تعالى: (وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ) (البقرة:٢٢٩)، «فالقرء» عند العرب يُطلق على الحيض، وكذلك على الطهر؛ لذا اختلف العلماء في حساب عدة المرأة المطلقة، فمنهم من عدها بالحيضات، ومنهم من جعلها بالأقراء، وهذا من الخلاف السائغ بين العلماء، لأن النص ظني الدلالة، يحتمل المعنيين. وما قلناه عن مثالي القرآن، يقال أيضا عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم].

وللحديث بقية، والحمد لله رب العالمين.



صيانة الأعراض

كتبه/ الشيخ: مصطفى العدوي

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده:

وبعد: فإن من أجل المقاصد التي جاءت بها الشرائع بعد الأمر بتوحيد الله عز وجل صيانة الأعراض، ومن ثم قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [الأعراف:٣٣]، فاتفقت الشرائع كلها على تحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وكان من أبشع هذه الفواحش فاحشة الزنا، جاء التحذير منها أيما تحذير، قال الله سبحانه: (وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا) [الإسراء:٣٢]، وقال الله سبحانه: (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ) [المؤمنون:٥-٧]، وقال سبحانه: (وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ) [الفرقان:٦٨-٧٠].

وقال سبحانه: (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) [النور:٢-٣]، وقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (ورأيت رجالاً ونساءً عراة على مثل التنور يأتيهم لهب من تحتهم فيحرق فروجهم، فقلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الزناة والزواني يا محمد!) رواه البخاري.

هذا شيء من عقوبتهم ذكر على لسان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، يبين مدى الألم الذي يلحق بهذه الفروج، التي استمتعت بالحرام، وتلذذت بالفحش والعياذ بالله!

ولقد حرم الله سبحانه وتعالى الزنا، ولم يرد في أي شريعة من الشرائع التي نزلت من عند الله سبحانه شيء يبيح الزنا بحال من الأحوال، لا في الإسلام، ولا في اليهودية، ولا في النصرانية، ولا في أي شرع نزل من عند الله، بل اتفقت الشرائع كلها على تحريمه، ومن ثم جاء في شريعتنا مزيد من الاحتياطات، وكان من هذه الاحتياطات أن حرم الوسائل المؤدية إليه، وحث على الوسائل الواقية منه.

أولاً: تحريم الوسائل المؤدية إليه، ومن ذلك:

١- حرمة خضوع النساء بالقول:

إن من السبل الموصلة إلى هذه الفاحشة الكبرى: خضوع النساء بالقول، ورب العزة يقول في كتابه الكريم: (فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا) [الأحزاب:٣٢] فالنسوة اللواتي يخضعن بالقول، ويرققن القول للرجال الأجانب مرتكبات للمآثم، ومرتكبات للحرام، فثم رجال في قلوبهم مرض إذا رقت المرأة في قولها له ظن أنها تريد منه الفاحشة قولاً واحداً، ولا يفكر فيما سوى ذلك، ومن ثَم نهى الله سبحانه النساء عن الخضوع بالقول فقال: (فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا) [الأحزاب:٣٢]، وقال سبحانه: (وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا) [البقرة:٢٣٥].

فلا ينبغي لامرأة أن تخضع بقولها في الهاتف، ولا في حديثها مع الرجال الأجانب، فإن ذلك يدعو إلى الفاحشة ويزينها، ولكن كما قال القائل أيضاً:

وما عجب أن النساء ترجلت
ولكن تأنيث الرجال عُجابُ

فثم رجل يتحدث في الهاتف أو مع الناس بأسلوب جاف وقوي، فإذا تحدث مع النساء خضع لهن بالقول كما تفعل النسوة، فيقع في حبائله نساء كثيرات يفتن بهن ويفتن به، فكل ذلك من السبل الداعية إلى هذه الرذيلة، وإلى هذه الفاحشة، فاحشة الزنا والعياذ بالله!

٢- حرمة سماع الغناء:

ومن السبل الموصلة إلى هذه الفاحشة سبيل الاستماع إلى الغناء المصحوب بالمعازف الذي يهيج الكامن ويثير الشر، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف) (رواه البخاري).

فكل أغنية مصحوبة بالموسيقى أو بالمعازف حرام، فالمعازف حرام لما سمعتموه من نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام، وكذلك تلك الأغاني التي لم تصحب بالمعازف، ولكنها تزين الفحش وترغب في الفجور، كتلك الأغاني الساقطة الهابطة، التي تقول فيها امرأة: خذني بحنانك خذني، ونحو هذه الأغاني الهابطة الساقطة، التي لا تنم إلا عن فحش، ولا تدفع إلا إلى شر، فالاستماع إلى ذلك فيه نشر للفساد، والله يقول في كتابه الكريم: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥].

٣- حرمة التبرج والسفور:

وكذلك من السبل الموصلة إلى هذه الفاحشة، التبرج المزري الذي يُفعل الآن، تخرج النساء كاسيات عاريات، كأنه خفي عليهن قول نبينا محمد عليه الصلاة والسلام: (صنفان من أمتي من أهل النار لم أرهما، نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا) رواه مسلم.

فهذا التبرج المزري الذي نهى عنه ربنا في قوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:٣٣] من أعظم الدوافع إلى الشر، ومن أعظم الدوافع إلى الفساد، كيف يفعل هذا الشاب الممتلئ رجولة وفحولة إذا رأى امرأة تسير في الطريق بهذه المناظر القبيحة؟ كيف يفعل الشاب إذا نظر إلى فيلم مؤداه الدعوة إلى الرذيلة ومضمونه قصة حب أو عشق تئول إلى زنا والعياذ بالله؟ كيف يفعل هذا الشاب إذا رجع إلى بيته ووجد أمامه في البيت أخته المتبرجة هي الأخرى؟ ألا يئول ذلك إلى فعل الفواحش حتى مع المحارم والعياذ بالله؟!

إن التبرج نهى عنه ربنا ونهى عنه نبينا محمد عليه الصلاة والسلام أيما نهي، بل قال نبينا عليه الصلاة والسلام حاثاً على ستر المرأة لجميع بدنها، قال عليه الصلاة والسلام: (المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكون المرأة من ربها وهي في قعر بيتها) رواه الترمذي بسند صحيح.

ومن ثم جاءت نصوص نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام تحث المرأة على القرار في البيت، إذ هي بخروجها تطمع الشريرين فيها، وتتسبب في الغواية بها: (صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في المسجد، وصلاتها في حجرتها أفضل من صلاتها في بيتها، وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في حجرتها) رواه أبو داود بسند صحيح.

وكذلك لا يخفى عليكم أن المرأتين اعتذرتا إلى موسى لما سألهما فقال لهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص:٢٣]

أي: إنما ألجأتنا الضرورة إلى أن نخرج من بيوتنا وإلى أن نسقي الأنعام، فأبونا شيخ كبير، فلم تكن الفضليات يخرجن إلا للضرورات، وعند الحاجات، وعند الملمات، فالقرار في البيت من أفضل الوسائل للابتعاد عن جريمة الزنا، وعن الافتتان بالنساء، فإن الفتنة بالنساء من أعظم الفتن على الإطلاق، إذ قال ربنا: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [آل عمران:١٤] فصدرت الشهوات بالنساء، وقال النبي عليه الصلاة والسلام: (فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء) رواه مسلم.

وكذلك قال عليه الصلاة والسلام: (ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء) رواه البخاري.

فهذه سبل ذكرنا بها نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، وحذرنا من كل سبيل يدعو إلى الوقوع في هذه الفاحشة.

٤- حرمة الخلوة بالمرأة الأجنبية

ومن السبل الداعية إلى هذه الفاحشة والميسرة لها، الخلوة بالنساء الأجنبيات اللواتي لسن بمحارم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إياكم والدخول على النساء، قال رجل: أفرأيت الحمو يا رسول الله -أي: قريب الزوج-؟ قال: الحمو الموت) متفق عليه.

هكذا قال النبي عليه الصلاة والسلام، فالذين يتساهلون ويدخلون إخوانهم على زوجاتهم، والذين يتساهلون ويدخلون أبناء عمومتهم على نسائهم، عليهم أن يستمعوا إلى المذكور في حديث النبي عليه الصلاة والسلام: (الحمو الموت)، فلا تتساهل -يا عبد الله- في إدخال رجل أجنبي بيتك ، وإن كان هذا الرجل قريباً لك، وإن كان هذا الرجل في ظنك تقياً، فإن رجالاً في زمن نبيكم محمد -وهو أفضل الأزمان- دخلوا على نساء فصدرت منهم الفواحش، جاء رجل إلى النبي محمد عليه الصلاة والسلام -كما في البخاري - وقال: (يا رسول الله إن ابني كان عسيفاً عند هذا الرجل -أي: أجيراً عنده- فزنى

بامرأته) متفق عليه.

حدث هذا على عهد نبينا محمد، رجل أجير عند آخر زنى بامرأته.

واقع مؤلم:

وقد يقع مثل ذلك الآن مع أقوام قلت غيرتهم، يدخلون المدرس الخصوصي البيت في غياب الرجال، فيدخل يعبث بالبنات، ويعبث بالنساء في غياب الرجل، وهذه خلوة محرمة، وكذلك لا يمكن الطبيب من الخلوة بالمرأة، فالطبيب رجل والمرأة امرأة، وكذلك قد يتخذ الطبيب ممرضة في عيادته، ويدخلها على الرجال، أو هو نفسه يخلو بها، فكم من بلية حدثت بسبب هذه اللقاءات بين الرجال وبين النساء، فلم يبح الله لطبيب أن يخلو بممرضة، ولا لمدرس أن يخلو بطالبة، ولا لسائق أن يخلو بربة بيت ولا بامرأة، ولا لرجل أن يخلو بخادمة في بيته، ولا لمدير أن يخلو بسكرتيرة، كل هذا محرم، قال النبي عليه الصلاة والسلام: (ألا لا يخلون رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان) رواه الترمذي بسند صحيح.

فجدير بك -يا عبد الله- أن تحرص على نفسك غاية الحرص من هذه الفتنة، فجريمة واحدة من هذه الجرائم، وفعلة واحدة تنكد عليك دنياك، وتنكد عليك أخراك، قال النبي عليه الصلاة والسلام قال: (وما فعل قوم الفاحشة إلا ظهرت فيهم الأوجاع التي لم تكن في الأمم من قبلهم) رواه ابن ماجه بسند حسن.

فالحذر الحذر -أيها الناس- من هذه الفتنة الكبرى، ومن مقدماتها، قال تعالى: (وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا) [الإسراء:٣٢].

٥- حرمة سفر المرأة بدون محرم:

نهى النبي عليه الصلاة والسلام المرأة عن السفر بدون محرم، لماذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم المرأة عن السفر بلا محرم؟ منعاً من وقوعها في هذه الفاحشة، فالمرأة بجبلتها ناقصة الدين، وناقصة العقل، تخدع من الماكرين، فمن ثَم قال عليه الصلاة والسلام: (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر إلا ومعها محرم) رواه البخاري.

٦- حرمة تطيب المرأة عند خروجها:

وكذلك نهى النبي عليه الصلاة والسلام المرأة عن التطيب عند خروجها، حتى لا تجذب إليها أنظار الرجال، قال عليه الصلاة والسلام: (أيما امرأة خرجت من بيتها متطيبة فمرت بقوم ليجدوا ريحها فهي زانية) رواه النسائي بسند حسن.

والزنا مراتب كما لا يخفى عليكم، قال عليه الصلاة والسلام: (أيما امرأة شهدت معنا العشاء الآخرة، فلا تمسن طيباً، ولا تمسن بخوراً) رواه مالك في الموطأ.

كل ذلك حتى لا تجذب إليها الرجال، وقال تعالى: (وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [النور:٣١].

٧- التفريق بين الأولاد في المضاجع:

وأمر نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام كذلك بالتفريق في المضاجع داخل البيوت، فلا تترك ابنتك المراهقة الشابة متبذلة في ثيابها أمام إخوانها الذين قد امتلئوا فحولة، وتتركهم ينامون في فراش واحد، قال النبي عليه الصلاة والسلام: (علموا أولادكم الصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع) رواه أبو داود بسند صحيح.

هكذا أدبكم نبيكم محمد عليه أفضل صلاة وأتم تسليم، فالتمسوا سنته، واقتفوا أثره، واهتدوا بهديه، عسى الله سبحانه أن يلحقكم به في أعلى جنة الخلد التي أُعدت للمتقين.

٨- تحريم النظر إلى النساء:

جاء في شريعتنا تحريم كل سبيل يؤدي إلى هذه الفاحشة، سدت كل الذرائع التي توصل إلى هذه الفاحشة، ابتداءً من النظر إذ قال ربنا سبحانه: (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا) [النور:٣٠-٣١]، فجاء تحريم النظر المحرم الذي يئول بصاحبه إلى هذه الفاحشة، وسواء كان النظر إلى أجساد العاريات، أو كان النظر إلى المجلات الساقطة الهابطة التي تنشر صور العرايا من النساء، مهيجة للناس على فعل الفواحش كما قال ربنا: (وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا) [النساء:٢٧].

فالنظر إلى الصور العارية في المجلات، وكذلك إلى المناظر العارية في أجهزة الإعلام من تلفاز وإنترنت وفيديوهات كل ذلك محرم، النظر إلى المناظر العارية المهيجة للشهوات والمعينة على الفسق والفجور كل ذلك محرم وممنوع، وكذلك ما يفعله شرار الشباب الفساق الذين يتجولون على المحلات التي تبيع ملابس النساء الداخلية، فينظرون إلى قمصان النساء ويتغزلون فيها، فكل ذلك من النظر المحرم، إذ كان يثير الشهوات ويشجع عليها، وكذلك النظر إلى المردان الذي يئول إلى فعل الفواحش بهم ومعهم، كل ذلك حرمه جمهور العلماء؛ صيانة للإنسان، ودرءاً لهذه الفتنة العظمى والبلية الكبرى بلية الزنا، التي تفسد على الشخص حياته وتنكد عليه معيشته.

فأول سبيل يؤدي إلى الفاحشة النظر، ولذا حرمه الله سبحانه بالآيات التي سمعتم، وقد

سُئل نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام عن نظر الفجأة، فقال صلى الله عليه وسلم: (اصرف بصرك) رواه البخاري.

وأخرج الطبراني بإسناد فيه كلام أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (النظرة سهم مسموم من سهام إبليس من تركها مخافة الله أبدله الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه)، فهذا النظر المحرم، حرمه الله سبحانه وتعالى علينا درءاً لهذه الفتنة، ودرءاً لهذه البلية.

ثانيا: تشريع وسائل الوقاية من فاحشة الزنا:

فمن السبل الواقية من هذه الفاحشة الكبرى، بل من أعظم السبل على الإطلاق للوقاية منها:

١- مراقبة الله سبحانه وتعالى:

مراقبة الله سبحانه وتعالى، وقد قال ربكم سبحانه: (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) [غافر:١٩] فراقبوا الله، واعلموا وأنتم تنظرون هذه النظرات المحرمة أن الله سبحانه يعلم خائنة الأعين، ويعلم كذلك ما تكنه الصدور وما تعلن، فرأس الأمر مراقبة الله سبحانه، والخوف من عقابه جل وعلا، هذا رأس النجاة.

٢- الزواج:

ثم إن هناك سبيلاً آخر علمنا إياه وذكرنا به نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، قال عليه الصلاة والسلام: (يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجَاء) متفق عليه.

وكذلك عليك بالاستعفاف قال الله سبحانه: (وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ) [النور:٣٣]، فرغبنا نبينا في الزواج دفعاً لهذه الفتنة العظمى، فإذا لم تجد من المال ما تتزوج به بكراً فتزوج ولو بثيب، امرأة مات عنها زوجها وترك لها أطفالاً وبُنيات صغيرات، عندها أثاث، وعندها بيت، لا تسأل إلا بعلاً يسترها، فتقدم لمثل هذه وتعفف بها، فإن نبيك محمداً عليه الصلاة والسلام سيد ولد آدم تزوج أول ما تزوج خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وهي تكبره بخمسة عشر عاماً وهي ثيب، وكانت من أحب نسائه إليه، ولما كان يكثر من ذكرها عاتبته عائشة في ذلك غيرة، فقال عليه الصلاة والسلام (إني رُزقت حبها) متفق عليه.

مع أنها كانت ثيباً وأكبر منه سناً.

فإذا لم تستطع أن تتزوج ببكر فتزوج بثيب وتعفف بها، واكفل أيتامها، قال النبي عليه الصلاة والسلام: (أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة، وفرق بين أصبعيه) رواه البخاري.

وكذلك قال: (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو كالصائم الذي لا يفطر، وكالقائم الذي لا يفتر) متفق عليه.

لا تنتظر سنة كاملة متأخراً عن الزواج من أجل أن تجهز غرفة للسفرة، كُل -يا عبد الله- على الأرض، وعجل بالبناء قبل سنة، كُل على الأرض ولا يلزمك أن تؤجل عاماً من أجل أن تشتري بعض الكراسي وسفرة تأكل عليها، فكن عاقلاً وكن ذكياً في صنعك.

كذلك لا تنتظر عامين آخرين حتى تجهز غرفة نوم كبرى، ولكن نم على الميسور، وإذا وسع الله عليك فوسع على نفسك، ووسع على أهل بيتك، فنبيك محمد كان ينام على الحصير حتى يؤثر الحصير في جنبه وإن نبي الله موسى عليه السلام أجر نفسه ثمانية أعوام، بل أتم أكمل الأجلين وأفضل الأجلين عشر سنوات أجيراً من أجل عفة فرجه، صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم.

فبادروا إلى التعفف يا عباد الله! فيا دعاة الإسلام! كونوا من ذوي الغيرة على الأعراض، وكونوا من ذوي الغيرة على النساء، لا يسمح أحدكم لامرأته ولا لابنته أن تخرج مختلطة تزاحم في المواصلات، متبرجة ينظر إليها القاصي والداني، يا دعاة الإصلاح! من منكم يرضى أن تزني أخته؟ من منكم يرضى أن ينظر الشباب الشرير المفسد إلى أخته نظرة بها أذى وبها مكروه؟ فعفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم، ويعف الأجانب عن بناتكم.

٣- التحذير من مكر العابثين بالأعراض:

في هذه الأزمان صار الذئاب يفترسون الفتاة، ولا يرضون بافتراسها مرة، بل مرات ومرات متعددة، تكثر شكاوى النساء التائبات، فتيات كن غاويات في بعض أزمانهن، فعبث بهن عابث، وارتكب معهن الفاحشة مرتكب، ثم صورها على هذه الحال، وسجل كلامها وهي على تلك الحال من الفحش، ثم لما تابت إذا هو يطاردها وإذا هو يهددها، إما أن تمكنه ثانية من نفسها وإلا نشر الأشرطة، ونشر الصور، ونشر المناظر التي جرت بينه وبينها، فتذعن المرأة وتنتكس مرات ومرات، والمعصومات من عصمهن الله.

فجدير بكل فتاة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تتقي الله في نفسها، وأن تحذر أشد الحذر من هؤلاء الذئاب الذي لا يرقبون فيها إلاّ ولا ذمة، جدير بكم أن تحذروا أخواتكم ونسائكم من هؤلاء الذئاب، الذئاب الذين يتلطفون في الحديث في الهواتف، كأنهم الحملان، يتلطفون في الحديث مع النساء في الهواتف إلى أن يوقعوا النساء في الحبائل والأشراك، ثم بعد ذلك لا يرقبون في الفتاة إلاّ ولا ذمة.

نسأل الله أن يقي أعراضنا من كل سوء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

من أنواع التربية الواجبة

الحلقة الثانية

التربية على العفة والاستعفاف

إعداد/ د. أحمد فريد

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإن مما ينبغي أن يتربى عليه الشباب المسلم الذي يهدف إلى إقامة المجتمع المسلم، وإعادة الخلافة على منهاج النبوة، التربية على العفة والاستعفاف، وسبق في العدد الماضي الحديث عن هذا الموضوع ونكمل في هذا العدد فنقول وبالله تعالى التوفيق:

الطريق إلى العفة:

فمن أراد الوصول إلى هدف سام ينبغي له أن يسلك الطريق الموصلة إليه، وأن يأخذ بأسباب تحصيله، فما هي الأسباب الموصلة إلى العفة؟

وبمعنى آخر: كيف يكون الاستعفاف؟ الذي هو طلب العفة.

وهذه جملة أسباب بحسب الاجتهاد لا الحصر:

١- تقوية الإيمان:

فإذا ضعف إيمان العبد صار لا يتورع عن المعاصي والشبهات، ويتكاسل عن الطاعات الواجبات: وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق وهو مؤمن... « [رواه البخاري: (٦٨٠٦)، ومسلم (١٠٣١)].

فإذا كانت شجرة الإيمان ضعيفة في قلب العبد؛ فإنها لا تثبت إذا أتتها عواصف الشهوات أو الشبهات؛ فمن أراد الثبات على الإيمان والبعد عن معصية الملك الديان فعليه بتقوية شجرة الإيمان، وإحياء وازع التقوى، واستشعار مراقبة الله عز وجل له، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الحديد: ٤).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في بيان درجة الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه، فهو يراك «[رواه البخاري (٥، ٤٧٧٧)، ومسلم (٨، ٩)].

ومهما استشعر القلب حلاوة الإيمان والمراقبة فإنه يستحي من مخالفة أمره، وارتكاب نهيه:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل
خلوت ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة
ولا أن ما يخفى عليه يغيب

راود رجل أعرابية في ليلة شديدة الظلمة، وقال لها: «والله، ما يرانا إلا الكواكب، فقالت: فأين مكوكبها؟!».

والتقوى: هي علم القلب بقرب الله سبحانه.

٢- إحياء الآداب الإسلامية:

كآداب النظر والخلطة والاستئذان: فإذا أهمل العبد هذه الآداب الإسلامية دخل عليه الشر، فمن أطلق لحظاته دامت حسراته.

قال بعضهم:

كل الحوادث مبدؤها من النظر
ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فعلت في قلب صاحبها
فعل السهام بلا قوس ولا وتر
والمرء مادام ذا عين يقلبها
في أعين الناس موقوف على خطر
يسر مقلته ما ضرَّ مهجته
لا مرحباً بسرور عاد بالضرر

وكذا البعد عن أماكن الاختلاط والفجور، والتبرج والسفور، ومخالطة أصحاب الشهوات، والمعرضين عن طاعة رب الأرض والسماوات؛ فإن في خلطة هؤلاء ترغيبًا في الدنيا الدنية والشهوات الدنيوية، أما مخالطة أهل الزهد والورع والرغبة في الآخرة، فإنها ترغِّب في ما عند الله من نعيم وتزهِّد في زينة الدنيا الفانية.

وكذا مراعاة آداب الاستئذان؛ فلا يهجم على أحد بغير استئذان، ولا يقف أمام الباب عند الاستئذان؛

حتى لا تقع عينه على عورة غافلة، وقد قدمنا في باب التربية على الآداب النبوية والسنن المصطفوية هذه الآداب بشيء من الإسهاب، فلا نطيل بذكرها، والله الهادي.

٣- البعد عن المثيرات الجنسية:

قال الدكتور عبدالله ناصح علوان: « من المسئوليات الكبرى التي أوجبها الإسلام على المربي أن يجنّب ولده ما يثيره جنسيّاً ويُفسده خلقياً، وذلك حينما يبلغ الولد سن المراهقة، وهو السن الذي يتراوح ما بين العاشرة إلى البلوغ.

ولقد أجمع علماء التربية والأخلاق على أن مرحلة المراهقة هي من أخطر المراحل في حياة الإنسان، فإذا عرف المربي كيف يُربي الولد، وكيف ينتشله من أوحال الفساد وبيئات الانحلال، وكيف يوجهه التوجيه الأمثل: فعلى الأغلب أن الولد ينشأ على الخُلق الفاضل، والأدب الرفيع، والتربية الإسلامية السامية». [تربية الأولاد في الإسلام (٢ /٥٢٣)].

- فمن المثيرات الجنسية التي ينبغي أن يتجنبها الشباب: أماكن التبرج والتهتك والسفور، كالأسواق، والشواطئ، وأماكن اللهو والمتنزهات.

- ومن المثيرات الجنسية: الصور الفاضحة التي تمتلئ بها الجرائد والمجلات التي يقوم عليها تجار الشهوات، والذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا.

- ومن ذلك المسلسلات الهابطة والأفلام الساقطة التي تُعرض على شاشة التلفاز والفيديو وأجهزة استقبال البث المباشر التي تنقل إلى بيوت المسلمين الحياة الغربية العفنة التي مات فيها الحياء، وذهبت الغيرة، وضاعت الأخلاق، واختفت معاني الشرف والمروءة، وصار الناس أضل من البهائم: {يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ}.

فإذا ألف الناس رؤية المتبرجات والمتهتكات، ورؤية الاختلاط الماجن بين الرجال والنساء؛ فإنهم لا يستقبحون القبيح، ولا ينكرون المنكر، فينبغي أن يصون المسلم سمعه وبصره وجوارحه من كل ما يثيره؛ حتى يحيا حياة عفيفة طاهرة مطمئنة نظيفة.

ومن أجل منع الإثارة الجنسية: أوجب الإسلام على المرأة إذا بلغت سن الرشد الالتزام بالحجاب عند خروجها، وجعل للعورة حدوداً فلا يكشف من المرأة ما يثير فتنة، ولا يظهر شيئاً من حسن أو جمال، وجعل لباس المرأة لا يصف الجسم، ولا يشف عنه.

قال عليه الصلاة والسلام: « صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مُميلات مائلات رءوسهن كأسنمة البُخت المائلة؛ لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا» والحديث رواه مسلم (٢١٢٨). [تربية المراهق» (ص: ١٠٩)].

وقال النووي: «هذا الحديث من معجزات النبوة؛ فقد وقع هذان الصنفان وهما موجودان، وفيه ذم هذين الصنفين». قيل: معناه كاسيات من نعمة الله، عاريات من شكرها، وقيل: تستر بدنها وتكشف بعضه إظهاراً بحالها ونحوه، وقيل: معناه تلبس ثوباً رقيقاً يصف لون بدنها، أما مائلات فقيل معناه عن طاعة الله وما يلزمهن حفظه، مميلات أي يعلمن غيرهن فعلهن المذموم» شرح النووي على صحيح مسلم» (٩٥٦/١٤).

٤- التبكير بالزواج:

عملاً بقول النبي صلى الله عليه وسلم: « يا معشر الشباب؛ من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجَاء» [رواه البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠)].

فإذا بلغت الفتاة سن الزواج، وتقدم لها من هو كفء لها؛ فعلى وليها أن يبادر بتزويجها، وكذا الشاب إذا كان عنده مؤن الزواج أو يملك والده أن يزوجه، فعليه أن يبادر إلى تزويجه؛ فإن الزواج أغض للبصر، وأحصن للفرج، وإن لم يفعلوا ذلك تكن فتنة في الأرض وفساد كبير.

يقول الدكتور بدير محمد بدير: « حثت السنة المطهرة على المسارعة بتزويج الشباب؛ فالزواج سبب من أسباب الاستقرار النفسي والإشباع الغريزي الفطري عن طريق نظيف مشروع، وذلك حتى يسلم الشباب من الانحلال الخلقي، وشيوع الفاحشة، والاتصال الحرام، وتفشي الأمراض الفتاكة بين الشباب، تلك الأمراض التي تقضي على النسل، وتوهي القوة، وتنشر الوباء، وتكون سبب العداوة والبغضاء» [منهج السنة النبوية في تربية الإنسان» (ص: ١١٩)].

ويقول الدكتور عبد العزيز بن محمد النغيمشي ما ملخصه: « وهكذا نجد أن الإشباع الغريزي حاجة

ملحة في مرحلة المراهقة، وأن النضج المبكر يقتضي الإشباع المبكر، ويكون ذلك بالزواج المبكر، والزواج المبكر هو الأصل والطريق الطبيعي الفطري لتلبية الحاجة الغريزية، والشوق والميل إلى الجنس الآخر؛ بسبب هذه الحاجة الملحة، والأسباب الأخرى أمر يقعّده المنهج الإسلامي ويؤصله، ويبيّن الأسلوب الناجح في إشباعه وتوجيهه، وقد سبقت الإشارة إلى أن المنهج الإسلامي منهج فطري واقعي في كل مطالبه وتشريعاته». [المراهقون.. دراسة نفسية إسلامية للآباء والمعلمين والدعاة (ص: ٨٧ – ٨٨)، دار طيبة].

٥- اختيار الصحبة الصالحة:

التي ترشد إلى الخير وتعين عليه، وتحذر من الشر وتمنع منه؛ فمن أراد سلامة دينه ودنياه، وصيانة نفسه وعفتها وكرامتها؛ فعليه بالانضمام إلى رفقة صالحة تؤنسه في غربته، وتعينه على طاعته، فليس شيء أنفع للعبد من مجالسة الصالحين والنظر إلى أفعالهم، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: « إنما مثل الجليس الصالح، والجليس السوء؛ كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك: إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة».

فمن وُفّق للصحبة الصالحة أخذت بيده إلى طريق العفة والنجاة والسعادة في الدنيا والآخرة. ومن سقط في رفقة فاسدة أضاعت عليه دنياه وآخرته، ولم ينل منهما إلا الصفقة الخاسرة والتجارة البائرة.

يقول الأستاذ محمد حامد الناصر:

« ولعظم الأثر الذي تحدثه الرفقة، ووضوح هذا التأثير في شخصية الصديق وسماته صار المربون والمجربون يعرفون المرء من رفقائه وجلسائه، ويقومونه بمعرفتهم لأصدقائه وقرنائه، وقد جاء في الأثر: « وإياك وقرين السوء؛ فإنه به تُعرَف».

ونادى الحكماء باستخدام هذا المقياس الدقيق للتعرف على شخصية الإنسان وشمائله، حتى قال بعضهم:

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه

فكل قرين بالمقارن يقتدي

[تربية المراهق في رحاب الإسلام (ص: ٢٤٨) ط. دار رمادي للنشر ودار ابن حزم].

٦- ومما يعين على العفة: التسامي والاستعفاف:

عملاً بقول الله عز وجل: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ﴾ (النور:٣٣).

وبقول النبي صلى الله عليه وسلم: « ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه وجاء» [رواه البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠)].

والمقصود بالتسامي والاستعفاف: هو أن يجتهد المسلم بكل طاقته في العبادة والطاعة والدعوة إلى الله عز وجل، وأن يُكثر من الصيام الذي يكسر الشهوة، وتذل به النفس، فيقوى عليها المؤمن ويطوعها لله عز وجل، والنفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل والمعاصي، وقد وعد الله من سلك طريق العفة والاستعفاف بتيسير أمر الزواج الذي يشبع فيه العبد نفسه بما شرعه الله عز وجل وأحله، فقال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ﴾.

قال الدكتور عبدالله ناصح علوان ما مخلصه:

فالتسامي هو أن تنفس عن نفسك بجهد روحي، أو عقلي، أو قلبي، أو جسدي، يستنفذ هذه القوة المدخرة، ويخرج هذه الطاقة المحبوسة بالالتجاء إلى الله، والاستغراق في العبادة، أو بالانقطاع إلى العمل، والانغماس في البحث، أو بالجهد الجسدي والإقبال على الرياضة، والعناية بالتربية الدينية، أو البطولة الرياضية. [تربية الأولاد في الإسلام (٥٩٣/١)].

٧- ومما يعين على العفة: معرفة بعض المواقف الإيمانية في العفة والاستعفاف:

كموقف نبي الله يوسف عليه السلام وعفته عن امرأة العزيز، وهي التي راودته عن نفسه، وهو في بيتها، وغلقت الأبواب، وقالت: هيت لك. فاعتصم بالإيمان ولجأ إلى الله الرحمن وقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾(يوسف: ٢٣).

ومن ذلك قصة مرثد بن أبي مرثد الصحابي رضي الله عنه، عندما دعته عناق للزنا فأبى وقال يا عناق إن رسول الله قد حرم الزنا. وانظره مفصلاً عند أبي داود (٢٠٥١) .

وغير ذلك من المواقف الإيمانية الشريفة، وقد ذكرنا جملة من ذلك في كتاب «مواقف إيمانية»، فلا نطيل بإعادة ذكرها، والله المستعان.

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

نظرات في سيرة الرسول



الإسلام دينٌ وسَط (٢)

إعداد / جمال عبد الرحمن

الحمد لله والصلاة على رسول الله، وبعد...
فقد ذكرنا في الحلقة الماضية موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه لما نادى فيهم يَوْمَ انْصَرَفَ عَنِ الْأَحْزَابِ أَنْ لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ، فَتَخَوَّفَ نَاسٌ فَوْتَ الْوَقْتِ فَصَلَّوْا دُونَ بَنِي قُرَيْظَةَ وقبل أن يبلغوها، وَقَالَ آخَرُونَ: لَا نُصَلِّي إِلَّا حَيْثُ أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَإِنْ فَاتَنَا الْوَقْتُ، فَمَا عَنَّفَ صلى الله عليه وسلم وَاحِدًا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ.
ومن موقف الرسول صلى الله عليه وسلم بإزاء الفريقين من قبول اجتهاديهما دون أن يفصح عن قصده لهم، ظهر العدل والإنصاف والوسطية والرحمة بالمجتهدين، وليكون فعله قدوة لأتباعه أن يكونوا أهل رفق بالمخالفين، حتى لا يفرح كل حزب بما لديه، ويتعصب كل فريق للذي هو عليه، محاولاً حَمْل خصمه على ما يراه، وإخضاعه بين يديه. فما أجمل الإسلام وما أعظم وسطية هذا الدين !!
وذكرنا أمثلة أخرى لبيان وسطية هذا الدين الحنيف، وانتهينا عند بيان وسطية الإسلام في أداء العبادات، وأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الغلو والزيادة والتشدد في الدين، وبيَّن أنه طريق هلاك، هلكت به الأمم السابقة، ونكمل في هذه الحلقة قائلين بعون الله تعالى:

الدين يغلب من تشدد فيه:

بيَّن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أحدًا لن يغلب الدين بالتشدد أو بالتفريط فيه، بل إن الدين هو الذي يغلب كل مخالفيه.
فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ، وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ». [صحيح البخاري ١/ ١٦].
والمعنى: لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيُغلَب.
وقوله: «فَسَدِّدُوا» أي: الزموا السداد، وهو الصواب من غير إفراط، ولا تفريط، والسداد: التوسط في العمل. وقوله: «وَقَارِبُوا» أي: إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فاعملوا بما يقرب منه. قوله: «وَأَبْشِرُوا» أي: بالثواب على العمل الدائم وإن قل. وقوله: «وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ» أي: استعينوا على مداومة العبادة بفعلها في الأوقات المنشطة، وهي أول النهار؛ ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس. وَالرَّوْحَةُ بالفتح: السير

بعد الزوال. وَالدُّلْجَةُ: السَّيْر آخر الليل، وقيل: سير الليل. والحديث نص في أن الدين يسر، وأن الدين قصد وأخذ بالأمر الوسط. [تعليق مصطفى البغا على صحيح البخاري ١/ ١٦].

٥- وسطية الإسلام في المعاملات:

أ. العدل بين ضعاف الرعية وأقويائها:

لما ولي أبو بكر رضي الله عنه الخلافة حَمِدَ اللَّهَ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي، الصِّدْقُ أَمَانَةٌ، وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عَلَيْه حقَّه إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَالْقَوِيُّ فِيكُمْ ضعيف [عندي] حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لا يَدَعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلا خذلهم الله بالذل، وَلَا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ إِلَّا عمهم اللَّهُ بِالْبَلَاءِ، أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ، قُومُوا إِلَى صَلَاتِكُمْ يَرْحَمْكُمُ اللَّهُ. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ. [البداية والنهاية ٦/ ٣٣٣].

وفي هذا الأثر تظهر وسطية الإسلام وعدله بين صغير أفراده وكبيرهم، وإنصافه لضعيفهم من قويهم، لأنهم إن لم يكونوا كذلك فلا قداسة لهم عند الله ولا تكريم.

عن جابر مرفوعًا:«كَيْفَ يُقَدِّسُ اللَّهُ أمة لا يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ؟». [ابن ماجه: ٤٠١٠، وقال الألباني: صحيح].

ب- ومثل ذلك أيضا العدل بين الأولاد والزوجات

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: تَصَدَّقَ عَلَيَّ أَبِي بِبَعْضِ مَالِهِ، فَقَالَتْ أُمِّي عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم، فَانْطَلَقَ أَبِي إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لِيُشْهِدَهُ عَلَى صَدَقَتِي، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «أَفَعَلْتَ هَذَا بِوَلَدِكَ كُلِّهِمْ؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «اتَّقُوا اللهَ، وَاعْدِلُوا فِي أَوْلَادِكُمْ»، فَرَجَعَ أَبِي، فَرَدَّ تِلْكَ الصَّدَقَةَ.[صحيح مسلم ٣/ ١٢٤٢].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا كَانَ عِنْدَ الرَّجُلِ امْرَأَتَانِ فَلَمْ يَعْدِلْ بَيْنَهُمَا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَشِقُّهُ سَاقِطٌ». أي ذاهب أو أشل. [سنن الترمذي ٣/ ٤٣٩]. صحيح.

ج- العدل بين الناس ولو كانوا أعداء:

قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا) [المائدة: ٨]، يعني لا يحملنكم بغضهم على عدم العدل، اعدلوا ولو كنتم تبغضونهم.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ربه عز وجل يقول: «أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَكَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَالْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى». [مسند أحمد ٣٠/ ٢٦٥] حديث صحيح.

ولهذا لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رواحة رضي الله عنه إلى أهل خيبر ليخرص (ليُقدِّر) عليهم ثمر النخل، وكان اليهود يزرعون الأرض للمسلمين على النصف ، فحدث أن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه قسم لهم نصيبهم وخيَّرهم أن يأخذوه أو يأخذوا النصف الآخر، فعرفوا أن هذا هو العدل بعينه؛ فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض ؛ أي بالعدل.

قال ابن حبان:» وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ يَأْتِيهِمْ كُلَّ عَامٍ يَخْرُصُهَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ يُضَمِّنُهُمُ الشَّطْرَ، فَشَكَوْا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم شِدَّةَ خَرْصِهِ، وَأَرَادُوا أَنْ يَرْشُوهُ فَقَالَ عبد الله: يَا أَعْدَاءَ اللَّهِ؛ أَتُطْعِمُونِي السُّحْتَ؟، وَاللَّهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَلَأَنْتُمْ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ عِدَّتِكُمْ مِنَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ، وَلَا يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِيَّاكُمْ وَحُبِّي إِيَّاهُ عَلَى أَنْ لَا أَعْدِلَ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: بِهَذَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ. [صحيح ابن حبان - ١١/ ٦٠٨]وإسناده صحيح.

فانظر أخي إلى أثر العدل والوسطية في استخراج شهادة أعداء الملة لأهلها، وثنائهم على هذا الدين وأهله. يا ليت قومنا في أزماننا يمتثلون هذه المعاني.

د- احترام العهود ولو كانت مع المشركين، ولو اضطر المسلم لهذا العهد:

الإسلام دين نقي نظيف، طاهر عفيف، لا يعرف أن يجور أو يحيف، ولا يقبل المراوغة والتزييف. ولا يرضى لأوليائه أن يظهروا بمظهر غير لائق، يصد الناس عن دعوة الحق وتضيع الحقائق.

- ومن نماذج العدل والإنصاف التي تظهر وسطية الإسلام : ما جاء في هذا الخبر :

حَدَّثَنَا حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ، قَالَ: مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلَّا أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي حُسَيْلٌ، قَالَ: فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ، قَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا، فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ، مَا نُرِيدُ إِلَّا الْمَدِينَةَ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَلَا نُقَاتِلُ مَعَهُ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ: «انْصَرِفَا، نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ اللهَ عَلَيْهِمْ». [صحيح مسلم ٣/ ١٤١٤].

قال النووي رحمه الله تعالى: أَرَادَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَنْ لَا يَشِيعَ عَنْ أَصْحَابه نَقْض الْعَهْد، وَإِنْ كَانَ لَا يَلْزَمُهُمْ ذَلِك، لِأَنَّ الْمُشيع عَلَيْهِمْ لَا يَذْكُرُ تَأْوِيلًا. [شرح النووي على مسلم ١٢/ ١٤٤].

صحيح أن الذي يشيع عنهم، ويشنع عليهم لن يتلمس لهم عذرًا، ولن يعرف لهم قدْرًا، ولن يبغي لهم أجرًا.

وعند أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى أن النبيصلى الله عليه وسلم قال لحذيفة وأبيه: (فُوا لَهُم)؛ أَمَرَ لحُذَيْفَة وأبيه بالْوَفَاء للْمُشْركين بمَا عاهدوهما عَلَيْه حين أخذوهما، أن لا يقاتلوهم، فقبل عُذْرهمَا وَأمرهمَا بالْوَفَاء. (ونستعين الله عَلَيْهِم) أي على قتالهمْ فإنَّما النَّصْر من عنْد الله لَا بكَثْرَة عدد وَلَا عُدد، وقد أعَانه الله تعالى، وكانت واقعة أعز الله بها الإسلام وأهله. (رواه أحمد، عَن حُذَيْفَة بن الْيَمَان). [التيسير بشرح الجامع الصغير٢/ ١٧٤].

ومن النماذج العالية في أداء الأمانات:

هـ - موقف أبي العاص بن الربيع زوج زينب بنت المصطفى صلى الله عليه وسلم:

- عَن ابْن إِسْحَاق رحمه الله تعالى قال: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّه بْنُ أَبِي بَكْر بْن حزم قَالَ: خرج أَبُو الْعَاص (زوج زينَب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم) تاجرًا إلى الشام، وكان رجلًا مأمونًا، فكانت معه بضائع لقريش، فأقبل فلقيته سرية للنَّبيّ صلى الله عليه وسلم، فاستاقوا عيره وهرب، وقدموا عَلَى رَسُول اللَّه صلى الله عليه وسلم بما أصابوا فقسمه بينهم، وأتى أَبُو العاص حتى دخل عَلَى زينب فاستجار بهَا، وسألها أن تطلب لَهُ من رَسُول اللَّه صلى الله عليه وسلم ردّ ماله عَلَيْه، فدَعَا رَسُول اللَّه صلى الله عليه وسلم السَّرِيَّة فقال لهم: «إنّ هذا الرجل منا حيث قد علمتم (يعني أنه زوج ابنته زينب)، وقد أصبتم لَهُ مالًا ولغيره ممن كَانَ معه، وهو فَيْءٌ، فإنْ رأيتم أن تردّوا عَلَيْه فافعلوا، وإنْ كرهتم فأنتم وحقكم». قَالُوا: بل نردّه عَلَيْه. فردُّوا والله عَلَيْه ما أصابوا، ثُمَّ خرج أبو العاص حتى قدم مكة، فأدّى إلى النَّاس بضائعهم، حتى إذا فرغ قَالَ: يا معشر قريش، هَل بقي لأحد منكم معي مال؟ قَالُوا: لا؛ فجزاك الله خيرًا. فَقَالَ: أما والله ما منعني أن أُسْلم بالمدينة قبل أن أقدم عليكم إلّا تخوُّفًا أن تظنّوا أني إنما أسلمت لأذهب بأموالكم، فإني أشهد أَنْ لَا إِلَهَ إلا اللَّهُ، وَأَنّ مُحَمَّدًا عبده ورسوله.

وعَن الشَّعبيّ، قَالَ: قدم أَبُو العاص من الشام ومعه أموال المشركين، وقد أسلمت امرأته زينب وهاجَرَت. فقيل لَهُ: هَلْ لك أن تُسْلم وتأخذ هذه الأموال التي معك؟ فقال: بئس ما أبدأ به إسلامي أن أخون أمانتي. وكفلت عَنْهُ امرأته أن يرجع فيؤدّيَ إلى كل ذي حق حقّه؛ فيرجع ويُسْلم، ففعل، وما فرّق بينهما، يعني النَّبيّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. [تاريخ الإسلام للذهبي ٢/ ٢٠٥]

فانظر أيها المسلم إلى هذا السلوك الحميد؛ حيث لم يتجاهل أبو العاص مشاعر قومه وإن كانوا على الشرك، بحيث لا يفزعون على أموالهم حال معرفتهم بإسلامه، أو يتركهم يسيئون به الظن، ولا ينبغي للمسلم أن يجعل من نفسه غرضًا ليسيء الناس به الظن. وكل ذلك من سماحة هذا الدين ووسطيته واعتداله ويُسره. ثم إن أبا العاص رضي الله عنه لم يشأ أن يبدأ إسلامه بشيء يشينه في نظر غير المسلمين.

٦- الوسطية في الاعتقادات:

ودين الله وسط بين من يتشدد كالخوارج فيكفّر من وقع من المسلمين في المعصية، وبين المرجئة المتساهلين الذين يرجئون ويؤخرون العمل عن النية، بمعنى إذا كانت نيتك سليمة فلا يضرك ما فعلت أو ما تركت، وهم الذين يقولون: لَا تضر مَعَ الْإِيمَان مَعْصِيَة كَمَا لَا تَنْفَع مَعَ الْكفْر طَاعَة.

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي:

وَالْمُعْتَزِلَةُ مُوَافِقُونَ لِلْخَوَارِجِ هُنَا فِي حُكْمِ الْآخِرَة، فَإِنَّهُمْ وَافَقُوهُمْ عَلَى أَنَّ مُرْتَكِبَ الْكَبِيرَة مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ، لَكِنْ قَالَت الْخَوَارِجُ: نُسَمِّيهِ كَافِرًا، وَقَالَت الْمُعْتَزِلَةُ: نُسَمِّيهِ فَاسِقًا، فَالْخِلَافُ بَيْنَهُمْ لَفْظِيٌّ فَقَطْ.

وَأَهْلُ السُّنَّةِ مُتَّفِقُونَ أيضاً عَلَى أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ الْوَعِيدَ الْمُرَتَّبَ عَلَى ذَلِكَ الذَّنْبِ، كَمَا وَرَدَتْ به النُّصُوصُ، لَا كَمَا يَقُولُهُ الْمُرْجِئَةُ مِنْ أَنَّهُ لَا يَضُرُّ مَعَ الْإِيمَانِ ذَنْبٌ، وَلَا يَنْفَعُ مَعَ الْكُفْرِ طَاعَةٌ! وَإِذَا اجْتَمَعَتْ نُصُوصُ الْوَعْدِ الَّتِي اسْتَدَلَّتْ بِهَا الْمُرْجِئَةُ، وَنُصُوصُ الْوَعِيدِ الَّتِي استدلت بها الخوارج والمعتزلة، تبين لَكَ فَسَادُ الْقَوْلَيْنِ! وَلَا فَائِدَةَ فِي كَلَامِ هَؤُلَاءِ سِوَى أَنَّكَ تَسْتَفِيدُ مِنْ كَلَامِ كُلِّ طَائِفَةٍ فساد مذهب الطائفة الأخرى.

[شرح الطحاوية - لأبي العز الحنفي، تعليق وتخريج الشيخ الألباني. ص: ٣٢٢]

وكذلك دين الله تعالى وسط بين المعطلة الذين عطلوا ونفوا صفات الله تعالى كالسميع والبصير وأنه سبحانه يفرح ويسخط، ويقبض ويبسط، وأن له يدًا وعينًا؛ زاعمين أنهم لو أثبتوها لله تعالى شبهوه بخلقه،وهؤلاء هم الجهمية والمعتزلة ومَن وافقهم،

وبين المشبهة الذين مثلوا وشبهوا الله تعالى بخلقه في ذاته وصفاته وقالوا: إن الله جسم وهو موجود فهو محدود.

قال الذهبي: والمقصود بالسلف هم الصحابة والتابعون ومن سار على نهجهم. ولقد كان قولهم في الاستواء كقولهم في سائر صفات الله، فهم وسط بين طائفتين هم المعطلة والمشبهة. فهم لا يمثلون صفات الله بصفات خلقه، ولا ذاته بذوات خلقه كما يفعل المشبهة. وكذلك لا ينفون عن الله ما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، فيعطلون أسماءه وصفاته، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويلحدون في أسمائه وآياته كما فعل المعطلة. بل كان مذهبهم في سائر الصفات - بما في ذلك الاستواء- أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه في كتابه أو على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم نفياً وإثباتاً. وطريقتهم في الإثبات أنهم يثبتون ما أثبته الله من الصفات من غير تكييف لها، ولا تحريف، ولا تمثيل، ولا تعطيل. وطريقتهم في النفي أنهم ينفون عن الله ما نفاه عن نفسه مع إثبات كمال ضد ذلك المنفي. [العرش؛ لشمس الدين الذهبي ١/ ١٨٧].

وقال شيخ الإسلام أيضًا: ولو اعتصموا بالكتاب والسنة لاتفقوا كما اتفق أهل السنة والحديث، فإن أئمة السنة والحديث لم يختلفوا في شيء من أصول دينهم، ولهذا لم يقل أحد منهم: إن الله جسم ولا قال: إن الله ليس بجسم. بل أنكروا النفي لما ابتدعته الجهمية من المعتزلة وغيرهم، وأنكروا ما نفته الجهمية من الصفات مع إنكارهم على من شبه صفاته بصفات خلقه، مع أن إنكارهم كان على الجهمية المعطلة أعظم منه على المشبهة؛ لأن مرض التعطيل أعظم من مرض التشبيه. [درء تعارض العقل والنقل «٥/٣٦٧»].

٧- التوسط في النصيحة والموعظة

وحتى في الموعظة والنصيحة ينبغي التوسط حتى لا يسأم الناس ويملوا؛ كما جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: «حَدِّثِ النَّاسَ كُلَّ جُمُعَةٍ (كل أسبوع) مَرَّةً، فَإِنْ أَبَيْتَ فَمَرَّتَيْنِ، فَإِنْ أَكْثَرْتَ فَثَلاَثَ مِرَارٍ، وَلاَ تُمِلَّ النَّاسَ هَذَا القُرْآنَ، وَلاَ أُلْفِيَنَّكَ تَأْتِي القَوْمَ وَهُمْ فِي حَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِهِمْ، فَتَقُصُّ عَلَيْهِمْ، فَتَقْطَعُ عَلَيْهِمْ حَدِيثَهُمْ فَتُمِلُّهُمْ، وَلَكِنْ أَنْصِتْ، فَإِذَا أَمَرُوكَ فَحَدِّثْهُمْ وَهُمْ يَشْتَهُونَهُ، وَانْظُرِ السَّجْعَ مِنَ الدُّعَاءِ فَاجْتَنِبْهُ»، فَإِنِّي عَهِدْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَأَصْحَابَهُ لاَ يَفْعَلُونَ إِلَّا ذَلِكَ يَعْنِي لاَ يَفْعَلُونَ إِلَّا ذَلِكَ الاجْتِنَابَ.[صحيح البخاري ٨/ ٧٤].

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، رضي الله عنه قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم «يَتَخَوَّلُنَا (يُخَفِّف) بِالْمَوْعِظَةِ فِي الأَيَّامِ، كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا». يعني حتى لا يصيبنا الملل.[صحيح البخاري ١/ ٢٥].

وقال عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه: أَجِمُّوا هَذِهِ الْقُلُوبَ وَاطْلُبُوا لَهَا طُرَفَ الْحِكْمَةِ فَإِنَّهَا تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ.

[المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق ومعاليها للخرائطي ص: ١٥١].

٨- الوسطية في الانتماءات لئلا تتولد عداوات

وذم الإسلام التحزب الذي يعتني بالحزبية وأفرادها وأعضائها، فقال الله تعالى: «مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ». (الروم/٣٢).

وعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم: «لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً». [صحيح مسلم ٤/ ١٩٦١].

والمعنى: (لا حلف) لا تعاهد على مثل ما كانوا يتعاهدون عليه في الجاهلية مما يتعارض مع الإسلام.

وأما المؤاخاة في الإسلام والمحالفة على طاعة الله تعالى والتناصر في الدين والتعاون على البر والتقوى وإقامة الحق فهذا باق لم ينسخ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم في هذه الأحاديث: «وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة». [شرح النووي على صحيح مسلم ٤/ ١٩٦١].

ولما ظهرت العصبية من وراء التحزب والانتماءات غضب النبي صلى الله عليه وسلم ووصفها بالجيفة المنتنة.

فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كُنَّا فِي غَزَاةٍ، فَكَسَعَ (ضرب) رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ، رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَاكَ رَسُولُ اللَّهِصلى الله عَلَيه وسلم فَقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ». [صحيح البخاري ٦/ ١٥٤].

فما أنظف هذا الدين وأنقاه وأطهره؛ وكذلك رجاله، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

وللحديث بقية إن شاء الله.

تحذير الداعية من القصص الواهية

قصة خلق العقل

الحلقة (١٦٤)

إعداد/ علي حشيش

نواصل في هذا التحذير تقديم البحوث العلمية الحديثية حتى يقف القارئ الكريم على حقيقة هذه القصة التي انتشرت على ألسنة القصاص الذين يقدمون العقل على النقل، وسلكوا سبيل المعتزلة الذين وضعوا هذه القصة الواهية وغيرها؛ ليؤيدوا بها هذه الفِرْية، ويهدموا الصحيح الثابت من السنة المطهرة باصطلاحات أجنبية دخلت أثناء الفتوحات الإسلامية بواسطة الكتب اليونانية، فدخلت الفلسفة في العقيدة ووجدت تشجيعًا رسميًا ودعمًا قويًا من الخلفاء المعاصرين وفي مقدمتهم المأمون العباسي وموقفه من إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله معروف.

ولقد بيَّن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى (٢١/٤) حيث قال: «وَفِي دَوْلَة « أَبِي الْعَبَّاس الْمَأْمُون « ظَهَرَ « الخرمية « وَنَحْوُهُمْ مِنْ الْمُنَافِقِينَ، وَعَرَّبَ مَنْ كُتُبِ الْأَوَائِلِ الْمَجْلُوبَةِ مِنْ بِلَادِ الرُّوم مَا انْتَشَرَ بِسَبَبِهِ مَقَالَاتُ الصَّابِئِينَ، وَرَاسَلَ مُلُوكَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ الْهِنْدِ وَنَحْوَهُمْ حَتَّى صَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مَوَدَّةٌ. فَلَمَّا ظَهَرَ مَا ظَهَرَ مِنْ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ فِي الْمُسْلِمِينَ وَقَوِيَ مَا قَوِيَ مِنْ حَالِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ ؛ كَانَ مِنْ أَثَرِ ذَلِكَ: مَا ظَهَرَ مِنْ اسْتِيلَاءِ الْجَهْمِيَّة ؛ وَالرَّافِضَة ؛ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالِ وَتَقْرِيبِ الصَّابِئَةِ وَنَحْوِهِمْ مِنْ الْمُتَفَلْسِفَة. وَذَلِكَ بِنَوْعِ رَأْيٍ يَحْسَبُهُ صَاحِبُهُ عَقْلًا وَعَدْلًا وَإِنَّمَا هُوَ جَهْلٌ وَظُلْمٌ إذْ التَّسْوِيَةُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُنَافِق ؛ وَالْمُسْلِم وَالْكَافِر أَعْظَمُ الظُّلْم وَطَلَبُ الْهُدَى عِنْدَ أَهْلِ الضَّلَالِ أَعْظَمُ الْجَهْل فَتَوَلَّدَ مِنْ ذَلِكَ مِحْنَةُ الْجَهْمِيَّةِ حَتَّى اُمْتُحِنَتْ الْأُمَّةُ بِنَفْيِ الصِّفَات وَالتَّكْذِيبِ بِكَلَام اللَّه وَرُؤْيَتِه وَجَرَى مِنْ مِحْنَةِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ مَا جَرَى مِمَّا يَطُول وَصْفُهُ.

أولا: المتن:

رُوِيَ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لما خلق الله تعالى العقل قال له: قُمْ فقام، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال له: أَقْبِل فأقبل، ثم قال له: اقعد فقعد، فقال له: ما خلقتُ خلقًا هو خير منك، ولا أكرم منك، بك آخذ، وبك أعطي، وبك أُعْرَف، وإيَّاك أعاقب، لك الثواب، وعليك العقاب». اهـ.

ثانيا: التخريج:

١- أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١٣/٦) (٥٥٩/١) قال: حدثنا عبد الرحمن بن القاسم القرشي الدمشقي، حدثنا يحيى بن صالح الوحاظي، حدثنا حفص بن عمر، حدثنا الفضل بن عيسى الرقاشي، عن أبي عثمان النهدي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لما خلق الله تعالى العقل...» الحديث.

٢- وأخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١٧٤/١) قال: أنبأنا محمد بن عبد الملك، قال: أنبأنا إسماعيل بن مسعدة، قال: أنبأنا أبو طالب العشاري قال: أنبأنا أبو حفص بن شاهين، قال: أنبأنا حمزة بن يوسف، قال: أنبأنا أبو أحمد بن عدي قال: أخبرنا عبد الرحمن بن القاسم به.

قلت: أي: من طريق ابن عدي نفسه.

ثالثا: التحقيق

١- هذا الحديث أورده الحافظ الذهبي في «الميزان» (٦٧٤٠/٣٥٦/٣) من طريق ابن عدي

الذي أوردناه آنفًا وجعله من مناكير الفضل بن عيسى الرقاشي، ثم ذكر عن أحمد بن زهير أنه قال: «سألت ابن معين عن الفضل الرقاشي فقال: كان قاصًا رجل سوء، قلت: فحديثه؟ قال: لا تسأل عن القدري الخبيث». اهـ.

٢- قلت: وهذا ربط بين الإسناد والاعتقاد، فقوله: «القدري الخبيث»: القدرية هم أتباع معبد الجهني لأنه أول من تكلم بالقدر، وحقيقة مذهبهم أنهم يقولون: إن أفعال العباد وطاعتهم ومعاصيهم لم تدخل تحت قضاء الله وقدره، فأثبتوا قدرة الله على أعيان المخلوقين وأوصافهم، ونفوا قدرته على أفعال المكلفين، وقالوا: إن الله لم يردها ولم يشأها منهم وهم الذين أرادوها وشاءوها وفعلوها استقلالاً، وأنكروا أن يُضل مَن يشاء ويهدي من يشاء، فأثبتوا خالقًا مع الله، وهذه القدرية مذهب باطل.



أما أهل السنة والجماعة فأثبتوا أن العباد فاعلون حقيقة، وأن أفعالهم تُنسب إليهم على جهة الحقيقة لا على جهة المجاز، وأن الله خالقهم وخالق أفعالهم، قال الله تعالى: « وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » [الصافات : ٩٦].

وأثبتوا للعبد مشيئة واختيارًا تابعين لمشيئة الله، قال الله تعالى: «لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ». اهـ.

ذكره الشيخ عبد العزيز السلمان في «الأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية» السؤال (١٥٤).

٣- قلت: وهذا ثابت في أول حديث في صحيح مسلم عن يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فَوُفِّقَ لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب، داخلًا في المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إليَّ، فقلت: أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناسٌ يقرءون القرآن ويتقفرون العلم، وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف، قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم براءُ مني والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر». اهـ.

٤- قلت: وبهذا يتبين حقيقة قول الإمام ابن معين في الفضل الرقاشي صاحب هذا الخبر الذي جاءت به هذه القصة الواهية، وأنه كان قاصًا رجل سوء، وعدما سُئل عن حديثه قال: «لا تسأل عن القدري الخبيث». اهـ.

قلت: هؤلاء أصحاب الدليل العقلي.

٥- وقال أبو سلمة التبوذكي: «لم يكن أحد ممن يتكلم في القدر أخبث قولاً من الفضل الرقاشي». كذا في «الميزان» (٣/٣٥٦).

٦- قال ابن عدي في «الكامل» (٦/١٣): «سمعت ابن حماد يقول: قال البخاري: فضل بن عيسى أبو عيسى الرقاشي خال المعتمر، قال عبد الله بن محمد عن ابن عيينة قال: كان يرى القدر، وليس أهلاً أن يُرْوَى عنه». اهـ.

ملاحظة مهمة:

نلاحظ أن أئمة الجرح والتعديل مثل الإمام يحيى بن معين والإمام ابن عيينة، والحافظ أبو سلمة التبوذكي عند التحذير من الرواية

عنه يقرن بذلك بأنه قدري خبيث؛ من أجل ذلك كان حتمًا علينا أن نبين حقيقة مذهب القدرية أصحاب هذا المذهب الذين يقدمون الدليل العقلي على النقل.

٧- قال الإمام الحافظ ابن حبان في «المجروحين» (٢/١١٠): «الفضل بن عيسى الرقاشي كنيته أبو عيسى، وهو ابن أخت يزيد الرقاشي، وكان خال المعتمر بن سليمان من أهل البصرة كان قدريًا داعية إلى القدر، وكان يقصّ بالبصرة ممن يروي المناكير عن المشاهير.

رابعًا: علة أخرى:

وأخرج الحافظ ابن عدي هذا الخبر الذي جاءت به قصة العقل مرة أخرى في «الكامل» (٢/٣٩٠) (١٤٣/٥١٢)في ترجمة حفص بن عمر يقال له قاضي حلب قال: حدثنا عبد الرحمن بن القاسم، حدثنا يحيى بن صالح الوحاظي، حدثنا حفص بن عمر حدثنا الفضل بن عيسى الرقاشي به.



قلت: فلا يتوهم من لا دراية له بالصنعة الحديثية أن الحافظ ابن عدي يكرر الحديث، فكما أن الإمام البخاري يكرر الأحاديث في صحيحه حيث يقطعها في الأبواب؛ بسبب استنباطه الأحكام منها، قال السيوطي في «التدريب» (١/٩٥) فللبخاري من الفضل ما ضمنه في أبوابه من التراجم التي حيّرت الأفكار». اهـ.

قلت: كذلك تكرار ابن عدي لهذا الحديث لإظهار علة أخرى في الحديث في ترجمة حفص بن عمر مما يدل على أنه ذكر علة أخرى في الخبر الذي جاءت به هذه القصة وجعله من منكراته وختم ترجمته قائلاً: «ولحفص بن عمر أحاديث غير ما ذكرته، ولم أجد له أنكر مما ذكرته». اهـ.

لذلك ذكره الإمام الحافظ ابن حبان في «المجروحين» (١/٢٥٩) قال: «حفص بن عمر قاضي حلب، شيخ يروي عن الثقات الأشياء الموضوعات، لا يحل الاحتجاج به». اهـ. ضعفه أبو حاتم، وقال أبو زرعة: «منكر الحديث» كذا في «الميزان» (١/٥٦٣).

قلت: فهذه العلة تزيد الحديث وهنًا على وهن.

خامسًا: طريق آخر للقصة

أخرجه العقيلي في «الضعفاء الكبير» (٣/١٧٥/١١٦٩)قال: حدثنا أحمد بن داود القوسي، قال: حدثنا أبو همام يعني الوليد بن شجاع، قال: حدثني سعيد بن الفضل القرشي، قال: حدثنا عمر بن أبي صالح العتكي عن أبي غالب، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لما خلق الله العقل...» الخبر.

سادسًا: تحقيق خبر أبي أمامة

١- قال الحافظ العقيلي: عمر بن صالح العتكي عن أبي غالب حديثه منكر، وعمر هذا وسعيد بن الفضل الراوي عنه مجهولون، ولا يُتابع أحد منهم على حديثه، ولا يثبت في هذا المتن شيئًا». اهـ.

٢- وقد أخرج هذا الخبر الذي جاءت به قصة خلق العقل الإمام ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/١٧٥) بسنده عن الحافظ العقيلي: «ولا يثبت في هذا المتن شيء». وأقره.

٣- قال الحافظ الذهبي في «الميزان» (٣/٢٠٦/٦١٤٦): «عمر بن أبي صالح، عن أبي غالب لا يُعرَف، ثم إن الراوي عنه مشهور بالمنكرات، والخبر باطل في العقل وفضله». اهـ.

سادسًا: قاعدة:

ختم الإمام ابن الجوزي أحاديث العقل في الموضوعات (١/١٧٧) قال: «وقد رُويت في

العقول أحاديث كثيرة ليس فيها شيء يثبت: منها شيء يرويه مروان بن سالم وإسحاق بن فروة، وأحمد بن بشير، ونصر بن طريف، وابن سمعان، وسليمان بن عيسى، وكلهم متروكون، وقد كان بعضهم يضع الحديث فيسرقه الآخر، ويغيّر إسناده، فلم نر التطويل بذكرها». اهـ.

سابعًا: تحقيق الإمام ابن القيم لخبر القصة وأحاديث العقل:

قال الإمام ابن القيم في المنار المنيف فصل ١٥: أحاديث العقل كلها كذب كقوله (لما خلق الله العقل قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر....)، وحديث (لكل شيء معدن، ومعدن التقوى قلوب العاقلين)، وحديث (إن الرجل ليكون من أهل الصلاة والجهاد وما يُجْزَى إلا على قدر عقله).

قال الخطيب: حدثنا الصوري قال: سمعت الحافظ عبد الغني بن سعيد يقول: قال الدارقطني: إن كتاب العقل وضعه أربعة؛ أولهم ميسرة بن عبد ربه، ثم سرقه منه داود بن المحبر، فركبه بأسانيد غير أسانيد ميسرة، وسرقه عبد العزيز بن أبي رجاء، فركبه بأسانيد أخر ثم سرقه سليمان بن عيسى السجزي فأتى بأسانيد أخر.

وقال أبو الفتح الأزدي لا يصح في العقل حديث، قاله أبو جعفر العقيلي وأبو حاتم بن حبان. والله أعلم.

ثامنًا: قاعدة أهل الحديث لبيان علاقة العقل بالنقل:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٨٠، ٨١): «إِنَّ كُلَّ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فَإِنَّهُ مُوَافِقٌ لِصَرِيحِ الْمَعْقُولِ وَأَنَّ الْعَقْلَ الصَّرِيحَ لَا يُخَالِفُ النَّقْلَ الصَّحِيحَ وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ يَغْلَطُونَ إمَّا فِي هَذَا وإِمَّا فِي هَذَا فَمَنْ عَرَفَ قَوْلَ الرَّسُولِ وَمُرَادَهُ بِهِ كَانَ عَارِفًا بِالْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ وَلَيْسَ فِي الْمَعْقُولِ مَا يُخَالِفُ الْمَنْقُولَ». اهـ.

ثم قال رحمه الله في «مجموع الفتاوى» (٦/ ٢٥): « مَنْ قَالَ بِمُوجَبِ نُصُوصِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ أَمْكَنَهُ أَنْ يُنَاظِرَ الْفَلَاسِفَةَ مُنَاظَرَةً عَقْلِيَّةً يَقْطَعُهُمْ بِهَا وَيَتَبَيَّنُ لَهُ أَنَّ الْعَقْلَ الصَّرِيحَ مُطَابِقٌ لِلسَّمْعِ الصَّحِيحِ». اهـ.

قلت: فلا تغرنك القصص الواهية والأحاديث الموضوعة التي تفيد بأن الله سبحانه ما خلق خلقًا هو خير من العقل، وتأثروا بهذا الكذب حتى جاءوا بأكذب منه، فقال قائلهم: «إذا تعارض العقل والنقل قُدم العقلُ وأُوّل النقل». اهـ.

قلت: لا يتعارض العقل الصريح مع النقل الصحيح، إنما الذي يتعارض مع النقل الصحيح هو الهوى لقوله تعالى: (وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ) [المؤمنون: ٧١].

هذا ما وفقني الله إليه وهو وحده من وراء القصد.

عزاء واجب

●● تتقدم أسرة مجلة التوحيد بخالص العزاء في وفاة شقيقة الشيخ محمد صفوت نور الدين، رحمهما الله، ووالدة زوجة الدكتور/ جمال المراكبي، الرئيس السابق لجماعة أنصار السنة، فنسأل الله أن يتغمد المتوفاة بواسع رحمته، وأن يلحقها بعباده الصالحين.

●● كما تتقدم أسرة مجلة التوحيد بخالص العزاء في وفاة الأستاذ حسن الجنيدي، قنصل مصر السابق في المملكة العربية السعودية، ووكيل جماعة أنصار السنة المحمدية، وكان رحمه الله من قدامى رجال أنصار السنة، نسأل الله أن يغفر له ويرحمه رحمة واسعة.

●● كما تتقدم أسرة مجلة التوحيد بخالص العزاء في وفاة الشيخ مصطفى متعب، عضو مجلس إدارة بلبيس، نسأل الله تعالى أن يتغمده بواسع رحمته.

قرائن اللغة والنقل والعقل على حمل صفات الله (الخبرية) و(الفعلية) على ظاهرها دون المجاز

الحلقة (١)

قرائن اللغة على حمل (يديه) تعالى على الحقيقة دون المجاز

إعداد/ أ.د. محمد عبد العليم الدسوقي
الأستاذ بجامعة الأزهر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.. وبعد:

فقد أثارت قضية وقوع المجاز في آي التنزيل بصفة عامة، ووقوعه في صفات الله - تعالى - بصفة خاصة، لغطاً كثيراً طوال الحقب الماضية، حتى ما خلا مكان من دولة الإسلام على مدى العصور والأزمان، من الحديث عنها وإثارتها.. مع سهولة ووضوح وجه الصواب في هذه القضية التي حسبوها شائكة كلما أثيرت، وأنه ينحصر في وجوده في القرآن عدا آي الصفات التي يجب إثباتها على النحو اللائق برب العزة دون تعطيل ولا تكييف ولا تشبيه ولا تجسيم، على الحقيقة وكما قضت به أدلة اللغة والعقل والنقل وانعقد عليه إجماع الأمة.. إلا أنها - وإلى يوم الناس هذا - لا تزال تستحوذ على فكر الكثير من البلاغيين، وينشغل بالحديث عنها العديد من الباحثين والمعنيين بتلقي العلوم الشرعية، وما تفتأ كذلك تُثار بشكل أو بآخر، ويدور حولها ذات اللغط ونفس الشغب الذي أحدثته من قبل.

إشكالية أهل الكلام في القول بالمجاز في نصوص الصفات:

وإشكالية المجاز اللغوي - الذي يعني في اصطلاح البلاغيين: «الكلمة المستعملة في غير ما وُضعت له في اصطلاح التخاطب على وجه يصح، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي» كـ (الظلمات) و(النور) في قوله تعالى: (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور..) (إبراهيم/ ١)، حيث استعيرت الكلمتان للضلال والهدى - أقول: إن إشكالية المجاز اللغوي لدى المتكلمة، تكمن في: أن الألفاظ من نحو (اليد) التي تعني الجارحة، و(الاستواء) الذي يعني الاقتعاد، وهكذا.. وضعت - في تصورهم - لهذه المعاني الحسية ولا تطلق على وجه الحقيقة على سواها، وإذا أطلقت على غيرها سواء أكان معلوماً أو مجهولاً، تكون قد استعملت في غير معناها، ولا تكون بحال من الأحوال مستعملة في ظواهرها وعلى حقيقتها، بل تكون مؤولة، بما يعني أن الألفاظ إذا لم تكن مشتركة فلا تستعمل في حقائقها مرتين، وإنما تقع الحقيقة في موضع استعمالها الأول، فإذا خرجت عنه كانت مجازاً وإن لم يصرح فيها باسم المجاز، كـ (اليد) مثلاً تُستعمل حقيقة في العضو المعروف فإذا استُعملت مرة أخرى في يد غير معروفة صارت مجازاً لخروجها عن موضع الحقيقة التي وضعت من أجلها.. وهذا غير صحيح بالمرة، إذ يعكر عليه:

١- «أن العرب - على حد ما جاء في مختصر الصواعق ص ٢٩٨، ٣١١ - لم تستعمل هذه الألفاظ مطلقة، بل لا تنطق بها إلا مقيدة كـ (رأس الإنسان) و(رأس الطائر) و(رأس الدابة) و(رأس الماء) و(رأس الأمر) و(رأس المال) و(رأس القوم)، فهاهنا المضاف والمضاف إليه جميعاً حقيقة وهما موضوعان، ومن توهم أن الأصل في الرأس للإنسان وأنه نقل منه إلى هذه الأمور، فقد غلط أقبح غلط وقال ما لا علم له به بوجه من الوجوه.. وهذا حكم عام في جميع الألفاظ المضافة كاليد والعين وغيرهما، فـ (يد البعوضة) حقيقة و(يد الفيل) حقيقة، وليست مجازاً في أحد الموضعين حقيقة في الآخر، وليست (اليد) مشتركة بينهما اشتراكاً لفظياً، وكذلك (إرادة البعوض)

و(حياتها) و(قوتها) حقيقة، و(إرادة الملك) - من البشر - و(قوته) و(حياته)، حقيقة.. ومعلوم أن القدر المشترك في هذه الألفاظ بين (الأسد) و(الرجل الشجاع)، وبين (البليد) و(الحمار) أعظم من القدر المشترك الذي بين (البعوضة) و(الفيل) وبين (البعوضة) و(الملك)، وإذا كان اللفظ حقيقة في كل ما ذكر باعتبار القدر المشترك، فلأن يكون حقيقة باعتبار القدر المشترك فيما هو أظهر وأبين - يعني فيما بين الخالق والمخلوق - أولى».. ولاسيما إذا كان من المعهود بالغرائز والفطر، والمعروف بالنظر والاستدلال، والمعلوم بالبداهة والضرورة، أن (الوجه) و(اليدين) و(السمع) و(البصر) و(الكلام) و(الغضب) و(الرضا) و(الإرادة) وكل ما وصف الخالق به نفسه ووصفه به رسوله لا يماثل ما عليه المخلوق.

ويقال حينئذ للمجادلين بالباطل: «إن هذه الألفاظ التي تستعمل في حق الخالق والمخلوق لها ثلاث اعتبارات:

أحدها: أن تكون مقيدة بالخالق كسمع الله وبصره، ووجهه واستوائه، ونزوله وعلمه، وقدرته وحياته.

الثاني: أن تكون مقيدة بالمخلوق كيد الإنسان ووجهه ويديه واستوائه.

الثالث: أن تجرد عن كلتا الإضافتين وتوجد مطلقة.

فإثباتكم هذه الألفاظ والصفات على مسمياتها، إما أن تكون باعتبار الأول أو الثاني أو الثالث ولا رابع لها.. فإن جعلتم جهة كونها حقيقة: تقيدها بالخالق، لزم أن تكون في المخلوق مجازاً، وهذا مذهب قد صار إليه (أبو العباس الناشئ) الشيعي.. وإن جعلتم جهة كونها حقيقة: تقيدها بالمخلوق، لزم أن تكون في الخالق مجازاً، وهذا مذهب صار إليه إمام المعطلة (جهم بن صفوان) ودرج أصحابه على أثره.. وإن جعلتم جهة كونها حقيقة: القدر المشترك غير المميَّز في موضوعها، لزم أن تكون حقيقة في الخالق والمخلوق، وهذا قول عامة العقلاء وهو الصواب.. وإن فرّقتم بين بعض الألفاظ وبعض وقعتم في التناقض والتحكم المحض».

٢- كما يعكر عليه: ليس انعدام القرائن الدالة على صرف صفات الخبر من نحو: (اليد) و(العينين) و(القدم)، والفعل من نحو: (الاستواء) و(المجيء) و(النزول) في حق الله عن الحقيقية إلى المجاز فحسب، بل دلالة القرائن على استعمال هذه الصفات في حقه تعالى على الحقيقة لا على المجاز.

القرائن اللغوية على حمل يده تعالى على الحقيقة لا المجاز:

فصفة اليد مثلاً.. يشير إلى إثباتها لله تعالى «اطراد لفظها في موارد الاستعمال وتنوع ذلك وتصريف استعماله الذي يمنع المجاز، ألا ترى إلى قوله تعالى: (خلقت بيدي..) (ص/ ٧٥)، وقوله: (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون..) (الزمر/ ٦٧)، وأيضاً لو كان لفظ اليد مجازاً في القدرة والنعمة، لما استُعمل منه لفظ (يمين الرحمن)، و(كلتا يديه يمين) الوارد في حديث مسلم وغيره، إذ لا يقال في هذا: (يد النعمة والقدرة).. ذلك أن المستعمل في يد (النعمة أو القدرة) الشرط فيه: أن يقترن باللفظ ما يدل على ذلك ليحصل المراد، وأن يكون المضاف من جنس المضاف إليه، لاسيما فيما يتنوع فيه المضاف بتنوع المضاف إليه فيكون بحسبه، وأن يكون مجرداً عن الإضافة وعن التثنية وعن نسبة الفعل - أو ما يعمل عمله - إليه، فيقال: (لفلان عندي يد) و(لولا يد له عندي)، ولا يكادون يقولون: (يده أو يداه عندي)، ولا (له عندي يد) ولا (يد فلان كذا) ولا (فعل هذا بيمينه).

وقد ذكرنا من قبل استنكار أبي الحسن الأشعري ذلك بشدة على المتأولة، وقوله في الإبانة ص ٩٩ ما نصه: «وليس يجوز في لسان العرب ولا في عادة أهل الخطاب، أن يقول القائل: (عملت كذا بيديَّ)، ويعني به النعمة، وإذا كان الله إنما خاطب العرب بلغتها وما يجري مفهوماً في كلامها ومعقولاً في خطابها، وكان لا يجوز في خطاب أهل اللسان أن يقول القائل: (فعلت بيدي) ويعني: النعمة، بطل أن يكون معنى قوله تعالى: (خلقت بيدي..) (ص: ٧٥) النعمة، وذلك أنه لا يجوز أن يقول القائل: (لي عليه يدي)، بمعنى: (لي عليه نعمتيَّ).. لأنه إن روجع في تفسير قوله تعالى: «بيدي» بـ «نعمتيَّ» إلى الإجماع، فليس المسلمون على ما ادَّعى متفقين، وإن روجع إلى اللغة فليس في اللغة أن يقول القائل: (بيديَّ)

ويعني (نعمتيَّ)، وإن لجأ إلى وجه ثالث سألناه عنه ولن يجد له سبيلاً»..

وإنما أُتِيَ المنكرون من المتكلمة والمؤولة لنفي صفة اليد له تعالى: من جهة أنهم رأوا اليد تُطلق على النعمة والقدرة في بعض المواضع، فظنوا أن كل تركيب وسياق صالح لذلك - حتى وإن قامت القرائن على خلافه - فوهموا وأوهموا، وإلا فهب أن هذا يصلح في قول بعضهم: (لولا يد لك لم أجزك بها)، أفيصلح في قوله جلت قدرته: (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) (العنكبوت ٤٨)، وفي قول عبد الله بن عمر: (إن الله لم يباشر بيده أو لم يخلق بيده إلا ثلاثاً: خلق آدم بيده، وغرس جنة عدن بيده، وكتب التوراة بيده)؟!، أو يصح في عقل أو نقل أو فطرة أو ملة أو شريعة أو منطق أن يكون معنى الآية: (وما كنت تتلو من كتاب ولا تخطه بنعمتك أو بقدرتك)، أو أن يصح أن يقال أن المراد من الأثر: (لم يخلق بقدرته أو بنعمته إلا ثلاثاً)؟![ينظر مختصر الصواعق ص ٤٠١: ٤٠٥].

ثم إن السائغ لصرف (اليد) عن ظاهرها إلى المجاز - على ما تقتضيه أوضاع العربية وما جرى عليه أربابها الأقحاح - «لا يستعمل إلا مفرداً أو مجموعاً، كقولك: (له عندي يد يَجزيه الله بها)، (وله عندي أياد)، وأما إذا كان بلفظ التثنية كما في قول الله تعالى: (لما خلقت بيدي..) (ص/ ٧٥)، فلم يعرف استعماله قط إلا في اليد الحقيقية؛ إذ ليس من المعهود أن يطلق الله على نفسه معنى القدرة والنعمة بلفظ التثنية، بل بلفظ الإفراد الشامل لجميع الحقيقة، كقوله تعالى: (إن القوة لله جميعاً..) (البقرة/ ١٦٥)، وكقوله: (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها..) (إبراهيم: ٣٤، النحل/ ١٨)، وقد يجمع النعم كقوله: (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنه..) (لقمان/ ٢٠)، وأما أن يقول: (خلقتك بقدرتين أو بنعمتين)، فهذا لم يقع في كلامه تعالى ولا في كلام رسوله ولا في كلام أحد ممن يعتد بعربيته.

ولما لم يثبت استعمال ذلك بلفظ التثنية، لم يجز أن يكون المراد به هاهنا: القدرة، فيبطل بذلك فائدة تخصيص آدم، فإنه وجميع المخلوقات حتى إبليس مخلوق بقدرته سبحانه.. ثم أي مزية لآدم على إبليس في قوله تعالى: (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي..) (ص/٧٥) إن حُمل معنى اليد على القدرة؟.. وأي خصيصة خص الله بها آدم دون سواه، بدت في قول موسى عليه السلام له وقت المحاجة على ما في الصحيحين: (أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء)، وكذا في قول أهل الموقف له إذا سألوه الشفاعة، لو كان الأمر كذلك؟.. فهذه أربع خصائص لآدم عليه السلام تضيع الفائدة منها لو وُضعت القدرة - التي يدعي المؤولة والمعطلة أن التعبير باليد هنا مجاز عنها - موضع اليد.

وفضلاً عن عدم صحة وضعها هناك، فإنه سبحانه لو قال بحق آدم عليه السلام لما امتنع إبليس أن يسجد له امتثالاً لأمر الله: (ما منعك أن تسجد لما خلقت بقدرتيَّ)، أو قال له موسى: (أنت أبو البشر الذي خلقك الله بقدرتيه)، أو قال له أهل الموقف ذلك، لم يحسن ذلك الكلام ولما كان فيه من الفائدة شيء، وتعالى الله أن يُنسب إليه مثل ذلك، فمثل هذا التخصيص - على ما تمليه دقة اللغة ولطافتها - إنما خرج مخرج الفضل له عليه السلام على غيره، كما أن ذلك أمر اختص به آدم ولم يشاركه فيه غيره، فلا يجوز حمل الكلام على ما يبطله. [ينظر السابق ٤٠٣، ٤٠٤].

يضاف إلى ما سبق ذكره: أن نفس التركيب المذكور في قوله: (خلقت بيدي..) (ص/ ٧٥)، يأبى حمل اليد على القدرة؛ لأنه سبحانه نسب الخلق إلى نفسه، ثم عدى الفعل إلى اليد، ثم ثناها ثم أدخل عليها الباء التي تدخل على نحو قولك: (كتبت بالقلم)، ومثل هذا نص صريح لا يحتمل المجاز بوجه، بخلاف ما لو قال: (عملت).. ولهذا لم يكن خلق الأنعام في قوله تعالى: (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً..) (يس/ ٧١) مساوياً لخلق أبي الأنام؛ حيث أضاف الفعل في هذه الآية إلى الأيدي وجمَعها ولم يدخل عليها الباء، فهذه ثلاثة فروق تبطل إلحاق أحد الموضعين بالآخر، وتتضمن عدم التسوية بينهما في مزية الخلق.. ومن المعلوم بداهة أن تسوية المعطل بينهما - قصَد ذلك أو لم يقصده - من أبطل الباطل وأعظم العقوق للأب؛ إذ ساوى بين أبيه الأول وبين إبليس والأنعام في الخلق باليدين.

ثم إن يد النعمة والقدرة لا يُتجاوز بها لفظ (اليد) ولا يُتصرف فيها بما يتصرف في اليد الحقيقية، فلا يقال مثلاً فيها (كف)، لا للنعمة ولا للقدرة، ولا (أصبع) و(أصبعان) ولا (يمين) - وهي ألفاظ جاءت في بعض صفاته تعالى ونطقت بها السنة - فهذا كله ينفي أن يكون اليد في حق الله تعالى: يد نعمة أو يد قدرة.. إذ لا يُعرف في الاستعمال أن يقال في (يد القدرة): (يد فلان كذا)، فضلاً عن أن يقال: (فعل هذا بيمينه)، فضلاً عن أن يقال: (فعله بيديه)، وإنما المستعمل في يد القدرة والنعمة أن تكون مجردة عن الإضافة وعن التثنية وعن نسبة الفعل إليها كما سبق تقريره.

ذلك أن اليد حيث أريد بها النعمة أو القدرة، لا بد أن يَقترن باللفظ ما يدل على ذلك ليحصل المراد، فإما أن تُطلق ويُراد بها ذلك، فهذا لا يجوز في لغة العرب.. كما إذا أطلق (البحر) و(الأسد) وادعى بذلك أنه أريد به: (الرجل الجواد والشجاع)، فهذا لا يجيزه عاقل ولا يتكلم به إلا من كان قصده التلبيس والتعمية، وحيث أراد تلك المعاني فإنه يأتي من القرائن بما يدل على مراده.. فأين ذلك من قوله تعالى: (لما خلقت بيدي..) (ص/ ٧٥)، وقوله: (بل يداه مبسوطتان..) (المائدة/ ٦٤)، وقوله صلى الله عليه وسلم كما في البخاري ومسلم: (فأقوم عن يمين ربي)، إلى غير ذلك مما لا يراد به إلا الحقيقة؟، بل وأين فيه ما يدل على خلافه من إرادة المجاز؟[ينظر السابق].

وإنما يكمن سر استعمال (اليد) في حق من له يد حقيقة تليق بكماله سبحانه، وتبدو نكتة إضافتها إليه - على ما هو مطرد في لغة العرب- في أن الأعمال والأخذ والعطاء والتصرف لما كان باليد وهي التي تباشره، عبروا بها عن الغاية الحاصلة بها.. وهذا يستلزم ثبوت أصل اليد حتى يصح استعمالها في مجرد القوة والنعمة والإعطاء، فإذا انتفت حقيقة اليد امتنع استعمالها فيها فيما يكون باليد، فثبوت هذا الاستعمال المجازي من أدل الأشياء على ثبوت الحقيقة.

وعلى نحو ما يكون التعبير عن اليد بطريق الحقيقة والمجاز المرسل يكون التعبير عنها بطريق الكناية:

وعليه فقوله تعالى في حق اليهود: (غلت أيديهم..) (المائدة/ ٦٤)، هو دعاء عليهم بغل اليد المتضمن للجبن والبخل، وذلك لا ينفي ثبوت أيديهم حقيقة، وكذلك قوله في المنافقين: (ويقبضون أيديهم..) (التوبة/ ٦٧) كناية عن البخل ولا ينفي أن يكون لهم أيد حقيقة، وكذلك قوله: (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط..) (الإسراء/ ٢٩)، المراد به النهي عن البخل والتقتير والإسراف، وذلك مستلزم لحقيقة اليد، وكذلك قوله تعالى: (أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح..) (البقرة/ ٢٣٧)، أي يتولى عقدها، وهو إنما يعقدها بلسانه ولكن لا يقال ذلك إلا لمن له يد حقيقة، وكذلك قوله: (ولما سقط في أيديهم..) (الأعراف/ ١٤٩) هو كناية عن الندم وتيقن التفريط والإضاعة، بمنزلة من سقط منه الشيء فحيل بينه وبينه، وأتى في هذا بلفظ (في) دون (من) لأن الندم سقط في أيديهم وثبت فيها واستقر، ولو قيل: (سقط من أيديهم)، لم يدل على هذا المعنى.. وإنما تعين لفظ اليد على الحقيقة لهذا المعنى دون المجاز لوجهين:

أحدهما: أنه يقال لمن حصل له شيء وإن لم يقع في نفس يده: (حصل في يده كذا وكذا من الخير والشر)، كما يقال: (كسبَتْ يده وفعلت يده)، وإن كان لغيرها من الجوارح.

ثانيها: إن الندم حدث يحصل في القلب وأثره يظهر في اليد؛ لأن النادم يعض يديه تارة، ويضرب إحداهما على الأخرى تارة، قال تعالى: (فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها..) (الكهف/ ٤٢)، وقال: (ويوم يعض الظالم على يديه..) (الفرقان/ ٢٧)، فلما كان أكثر الندم يظهر على اليد أضيف سقوط الندم إليها؛ لأن الذي يظهر للعيان هو تقليب الكف وعض الأنامل، وأتى بهذا الفعل (سُقط) مبنياً للمجهول إيهاماً لشأن الفعل كقولهم: (دُهي فلان وأصيب بأمر عظيم).

والمقصود أن ذلك لا يقال إلا لمن له يد حقيقة، فإذا قيل: (سُقط في يديه) عَرف السائل أن ذلك الكلام مستلزم لحقيقة اليد، خلافاً لما تستعمل اليد فيه للنعمة والقدرة، وإنما يوضح هذا من ذاك دلالات السياق وقرائن الأحوال.. وإلى لقاء آخر إن شاء الله نستكمل فيه ما بدأناه.

{ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا }
(الإسراء: الآية ٢٣)

بر الوالدين

والديك؛ ضعهما في عينيك

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى، وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه واقتفى.

أما بعد:

فإن النفوس قد جُبلت على حبِّ من أحسن إليها، وليس في الناس أعظم إحسانًا ولا أكثر فضلاً من الوالدين؛ لأنهما اللذان لولا الله ثم لولاهما لم تخرج إلى هذا الوجود، ولأنهما اللذان سخرهما الله لك فصبرا على ما رأيا من الأهوال، وسخرهما لتربيتك والعناية بك في هذه الحياة.

إعداد/ عبده أحمد الأقرع

منزلة الأم:

تذكر زمن حمل أُمك بك وأنت في بطنها علةً من أكبر العلل، وتذكر وقت ولادتك وهي بين الحياة والممات.

وتذكر أنك كنت تمتص من دمها مدة الرضاع، وسرورها بك، كل هذا تقصر عن شرحه العبارات، وتذكر تنظيفها لبدنك وملابسك من الأقذار، وتذكر فزعها عندما يعتريك خوفٌ أو مرض أو نحو ذلك، وتذكر دفاعها عنك إذا اعتدى عليك معتد، تجوع لتشبع أنت، وتسهر لتنام أنت؛ فهي بك رحيمة، وعليك شفيقة، إذا غابت عنك دعوتها، وإذا أعرضت عنك ناجيتها، وإذا أصابك مكروه استغثت بها، تحسب كل الخير عندها، وتظن أن الشر لا يصل إليك إذا ضمتك إلى صدرها، أو لحظتك بعينها، وتستمر معها المتاعب حتى بعد أن تشب أنت وتصبح رجلاً وزوجًا، وذا أولاد، فالوالدة دائمًا تبحث عنك وتتفقد أحوالك، يسوءها ما يسوءك، ويحزنها ما يحزنك، فلله درهنَّ من أمهات مشفقات، ومربيات رفيقات، ووالدات رقيقات- جزاهنَّ الله عنا جناتٍ عرضها الأرض والسماوات.

منزلة الأب:

أما الأب الغالي، والوالدُ الحاني: فأنت له مجبنة مبخلة، يكدُّ ويسعى، ويدفع عنك صنوف الأذى، ينتقل في الأسفار، يجوبُ الفيافي والقفار، ويتحمل الأخطار بحثًا عن لقمة العيش، ينفق عليك، ويصلحك ويربيك، إذا دخلت عليه هش، وإذا أقبلت إليه بش، وإذا حضر أقعدك على حجره وصدره، وإذا غبت

عنه سأل عنك، وانتظر مجيئك، وإذا رآك ابتسم مُحياه وبرقت ثناياه.

وتذكر عنايته بك في تعليمك، وتوجيهك إلى ما فيه صلاح دينك ودنياك، وتذكر فرحه واستبشاره بمحبتك ونجاحك، وتذكر دفاعه عنك بيده ولسانه، وتذكر دعاءه لك في مظنة أوقات الإجابة أن يُصلحك الله ويوفقك، هذان هما والداك، وتلك هي طفولتك وصباك.

والداك نالا بسببك التعب والمشقة، غُرست محبتك في قلوبهما لا يتركان شيئًا في وسعهما إلا بذلاه لإسعادك، أنت قرة عينيهما وزينة دنياهما، وأنت أنس حياتهما وأمل مستقبلهما، يرخصان المال إذا مرضت، ويجزلان العطاء إذا طلبت، من رحيقهما أخذت، وفي حُجورهما وأحضانهما نشأت.

هذان هما الأبوان اللذان جاءت الوصية بهما: (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) [الأحقاف: ١٥].

(وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ) [لقمان: ١٤].

وفي مشكاة النبوة يأتي برُّ الوالدين قرينًا للصلاة عمود الإسلام ومتقدمًا على الجهاد ذروة سنام الأمر.

عن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: سألت النبيَّ صلى الله عليه وسلم: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أيٌّ، قال: «الجهاد في سبيل الله». [صحيح البخاري: ٥٢٧، وصحيح مسلم: ٨٥].

فانظروا- يرعاكم الله- كيف فاق برُّ الوالدين الجهاد في سبيل الله!!

ويشهد لذلك أيضًا- أنَّ رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الجهاد، فقال: «أحيٌّ والداك؟» قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد». [البخاري: ٣٠٠٤، ومسلم: ٢٥٤٩].

الغفلة عن البر ومساوئ العقوق:

ورغم هذه الوصايا الإلهية والتوجيهات النبوية إنك لتأسف أشد الأسف من صور تراها، أو حقائق تسمعها، من تساهل كثير من الأبناء في بر والديهم، فلا تقدير ولا احترام، ولا سمع ولا طاعة، بل غلظةٌ وفظاظة، ونهرٌ وعقوق، وقد كانا يتطلعان للإحسان، ويؤملان البر والشكران، ولكن خاب ظنهما، وكأني بهما وقد تمنيا أن لو كانا عقيمين، تئن لهما الفضيلة، وتبكي من أجلهما المروءة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فإلى العاق نذكر بهذه التحذيرات النبوية:

عقوق الوالدين يمنع دخول الجنة:

قال صلى الله عليه وسلم: «ثلاثةٌ حرم الله تبارك وتعالى عليهم الجنة: مدمن الخمر، والعاق، والديوث، الذي يقرُّ الخبث في أهله». [صحيح الترغيب: ٥١٢].

وعقوق الوالدين يمنع العاق من نظر الله إليه يوم القيامة: قال صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، ومدمن الخمر، والمنان عطاءه». [صحيح الترغيب: ٢٥١١].

وعقوق الوالدين من أكبر كبائر الذنوب:

قال صلى الله عليه وسلم: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»، وكان متكئًا فجلس، فقال: «ألا وقول الزور وشهادة الزور». [البخاري: ٢٦٥٤، ومسلم: ٨٧].

وعقوق الوالدين يحبط الأعمال:

عن عمرو بن مرة الجهني- رضي الله عنه- قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، شهدت أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وصليت الخمس، وأديت زكاة مالي، وصمت رمضان، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا- ونصب أصبعيه- ما لم يعق والديه». [صحيح الترغيب رقم: ٢٥١٥].

فقوله صلى الله عليه وسلم: «ما لم يعق والديه». يفيد أن الصلوات الخمس، وصيام الشهر، وإيتاء الزكاة لا ينفع ذلك صاحبه إذا كان عاقًا لوالديه، يؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة لا يقبل الله عز وجل منهم صرفًا ولا عدلاً، عاق، ومنان، ومكذب بقدر». [صحيح الترغيب: ٢٥١٣].

عقوق الوالدين من أسباب تعجيل العقوبة في الدنيا، مع ما يُدَّخر له في الآخرة:

قال صلى الله عليه وسلم: «ما من ذنب أجدر أن

يُعجّل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا، مع ما يدخره له في الآخرة من البغي، وقطيعة الرحم». [صحيح الجامع رقم: ٥٧٠٤].

وهذا أمر مشاهد وملموس، ولو لم يكن للعاقّ من العقوبة إلا ما يُرى من سوء حاله لكفى، فإنك تراه غالبًا في أبأس الحالات وأشدها، بخلاف البارّ بوالديه؛ فإن أموره -في مجملها- ميسَّرة بركة في العمر، وزيادة في الرزق، قال صلى الله عليه وسلم: «من سرَّه أن يمد له في عمره ويزاد له في رزقه فليبر والديه وليصل رحمه». [صحيح الترغيب: ٢٤٨٨].

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يردُّ القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر». [صحيح الترغيب: ٢٤٨٩].

ويظفر البارّ بوالديه برضا الرب سبحانه، قال صلى الله عليه وسلم: «رضا الرب في رضا الوالد، وسخط الرب في سخط الوالد». [صحيح الجامع: ٣٥٠٦].

البار بوالديه مُجاب الدعاء:

قال صلى الله عليه وسلم: «يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن، من مراد، ثم من قرن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بارّ، لو أقسم على الله لأبره». [مسلم: ٢٥٤٢].

وبرُّ الوالدين: منهج الأنبياء والمرسلين، وعمل الكرام والصالحين، قال الله تعالى عن نبيه عيسى عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢]، وقال تعالى عن نبيه يحيى بن زكريا- عليهما السلام-: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤].

وقال تعالى عن نبيه سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ [النمل: ١٩]، وقال تعالى عن المؤمن: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ [الأحقاف: ١٥].

والدعاء لهما - دأبُ المرسلين من أولي العزم:

قال الله تعالى عن نبيه نوح- عليه السلام-: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨].

وقال تعالى عن خليله إبراهيم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

ومن الآثار الواردة في بر الوالدين:

عن أبي مرة، مولى أم هانئ بنت أبي طالب: «أنه ركب مع أبي هريرة إلى أرضه بـ«العقيق»، فإذا دخل أرضه صاح بأعلى صوته: عليك السلام ورحمة الله وبركاته يا أمتاه، تقول: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، يقول: رحمك الله كما ربيتني صغيرًا، فتقول: يا بني، وأنت، فجزاك الله خيرًا ورضي عنك كما بررتني كبيرًا». [صحيح الأدب المفرد للبخاري: ص٣٧].

وعن أبي بُردة أنه شهد ابن عمر، ورجل يماني يطوف بالبيت، حمل أمه وراء ظهره يقول:

إني لها بعيرُها المذلل

إن أذعرت ركابها لم أُذعر

ثم قال: يا ابن عمر، أتراني جزيتها؟ قال: لا، ولا بزفرة واحدة. [صحيح الأدب المفرد ص٣٦]، ومعنى: «ركابها» أي: بعيرها. ومعنى: «ولا بزفرة واحدة» المرة من الزفير وهو تردد النفس حتى تختلف الأضلاع، وهذا يعرض للمرأة عند الوضع.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إني لا أعلم عملاً أقرب إلى الله من بر الوالدة. [الأدب المفرد].

وسُئل الحسن البصري: ما بر الوالدين؟ قال: أن تبذل لهما ما ملكت، وأن تطيعهما فيما أمراك به؛ إلا أن يكون معصية. [الدر المنثور للسيوطي ٥/٢٥٩].

إذا علمت ذلك فاعلم أن حق الوالدين عظيم، وأنَّ الأبناء عاجزون عن القيام بهذا الحق مهما قدموا، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يجزي ولدٌ والدًا إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه». [مسلم: ١٥١٠].

فأنت أيها الابن مهما فعلت في بر الوالدين والإحسان إليهما فلن تقوم بواجبهما أو توف حقهما، ولكن الجأ إلى الله بالدعاء لهما في حال الحياة وبعد الممات، فهذا خلق الأنبياء، ودأب الصالحين: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

والحمد لله رب العالمين.

عوامل الصبر والثبات

العامل السادس: الإيمان باليوم الآخر

الحلقة السادسة

إعداد/ المستشار/ أحمد السيد علي

الحمد لله حمدًا يليق بجلاله وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على عبده ورسوله الذي اصطفاه على جميع أنامه، وعلى زوجاته الطاهرات، وعلى أصحابه الغر الميامين المتبعين لهديه في كل أحكامه.

وبعد، فما يزال الحديث موصولاً عن عوامل الصبر والثبات، ونعيش بمشيئة الله تعالى مع العامل السادس ألا وهو: الإيمان باليوم الآخر، فنقول وبالله التوفيق:

أولاً: معنى الإيمان باليوم الآخر:

قال المباركفوري في الرحيق المختوم: (وهو مما كان يقوي هذا الشعور - الشعور بالمسئولية - فقد كانوا على يقين جازم بأنهم يقومون لرب العالمين، ويُحاسَبون على أعمالهم دِقّها وجلّها، صغيرها وكبيرها، فإما إلى النعيم المقيم، وإما إلى عذاب خالد في سواء الجحيم، فكانوا يقضون حياتهم بين الخوف والرجاء، يرجون رحمة ربهم ويخافون عذابه، وكانوا كالذين (يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ) (المؤمنون:٦٠)، وكانوا يعرفون أن الدنيا بعذابها ونعيمها لا تساوي جناح بعوضة في جنب الآخرة، وكانت هذه المعرفة القوية تهوّن لهم متاعب الدنيا ومشاقها ومرارتها؛ حتى لم يكونوا يكترثون لها ويلقون إليها بالًا) اهـ.

والإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بالبعث، وبالحساب والجزاء، وبالجنة والنار.. وغير ذلك مما ثبت في وصف يوم القيامة والدار الآخرة في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

١ - الإيمان بالبعث:

فالمسلم يؤمن بأن الله هو الباعث، وسيبعث الناس ليوم لا ريب فيه، قال تعالى: (وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ) (الحج: ٧)، وقال: (ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ) (المؤمنون: ١٦)، وقال: (زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ) (التغابن: ٧).

٢ - الإيمان بالحساب والجزاء:

ويؤمن كذلك بأن الله سبحانه وتعالى سيحاسب الناس على ما فعلوه في دنياهم، قال تعالى: (لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ) (إبراهيم: ٥١)، وقال سبحانه: (ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) (الأنبياء: ١)، وقال جل وعلا: (ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ) (غافر: ١٧)، وقال سبحانه: (إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم) (الغاشية: ٢٥-٢٦).

٣- الإيمان بالجنة والنار:

ويؤمن بأن الله خلق الجنة والنار، وأنهما موجودتان وباقيتان لا تفنيان، وأن الله أعد الجنة لعباده المؤمنين خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض، وأعد النار للكافرين خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض، ولعصاة المؤمنين بغير خلود، قال تعالى: (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) (هود: ١٠٦- ١٠٨).

ثانيا: بعض أنواع الصبر المترتبة على هذا العامل:

النوع الأول: الصبر على المصائب:

إن المؤمن إذا آمن باليوم الآخر بأركانه الثلاثة فلابد أن يصبر على المصائب التي تقع له، وليس أدل على ذلك مما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (لما ثَقُل النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جعَل يتَغَشَّاه، فقالتْ فاطمةُ عليها السلامُ: واكَربَ أباه، فقال لها: (ليس على أبيك كَربٌ بعدَ اليوم). فلما مات قالتْ: يا أبَتاه، أجاب ربًّا دَعاهَ، يا أبَتاه، مَن جنةُ الفِردَوس مَأواه، يا أبَتاه، إلى جِبريلَ نَنعاه. فلما دُفِن قالتْ فاطمةُ عليها السلامُ: يا أنسُ، أطابَتْ أنفسُكم أن تَحثوا على رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الترابَ؟!) (رواه البخاري).

فهذه فاطمة رضي الله عنها تصبر على فقدها لأبيها وتسلم لقضاء الله وقدره، لإيمانها بمآل أبيها صلى الله عليه وسلم، وأن الدار الآخرة خيرٌ له من الحياة الدنيا، وانظر أخي الحبيب إلى فعلها وقارن بينه وبين من لم يخالط الإيمان باليوم الآخر قلبه، فلم يصبر على ما أصابه من موت الأحبة وفراقهم.

النوع الثاني: الصبر على الابتلاءات:

والابتلاءات متعددة، والمؤمن إذا آمن باليوم الآخر فلا يسعه إلا الصبر عليها، وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على الإحسان للجار والصبر على أذيته، وعدم معاملته بالمثل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صل الله عليه وسلم: (من كانَ يؤمِنُ باللَّهِ واليوم الآخِرِ فلا يؤذِ جارَه) (رواه البخاري).

وفي رواية عن أبي شريح العدوي الخزاعي قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره) (رواه مسلم).

وقد بيّن ذلك الحسن البصري فقال: (ليس حسن الجوار كفّ الأذى عن الجار، ولكن حسن الجوار الصبر على الأذى من الجار). وقد صبر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على هذا الابتلاء العظيم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (جاء رجل إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يشكو جارَه، فقال: اذهب فاصبِرْ، فأتاه مرتين أو ثلاثًا فقال: اذهب فاطرحْ متاعَك في الطريق. فطرح متاعَه في الطريق، فجعل الناسُ يسألونه فيخبرهم خبرَه، فجعل الناسُ يلعنونَه: فعل اللهُ به، وفعل، وفعل، فجاء إليه جارُه فقال له: ارجعْ لا ترى مني شيئًا تكرهه) (رواه أبو داود، وقال الألباني: حسن صحيح).

فالرجل الأول صبر على أذى جاره، والجار المؤذي توقف عن الإيذاء؛ خوفًا من أن تصيبه اللعنة فيصير مطرودًا من رحمة الله في الآخرة.

وتبع الصحابة في ذلك فضلاء هذه الأمة، فقد حكى الغزالي في الإحياء (أن مالك بن دينار - رحمه الله تعالى - كان له جار يهودي، فحول اليهودي مستحمّه إلى جدار البيت الذي فيه مالك، وكان الجدار متهدِّمًا، فكانت تدخل منه النجاسة، ومالك ينظف البيت كلَّ يوم ولم يقل شيئًا، وأقام على ذلك مدة وهو صابر على الأذى، فضاق صدر اليهودي من كثرة صبره على هذه المشقة، فقال له: يا مالك، آذيتك كثيرًا وأنت صابر، ولم تخبرني، فقال مالك: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: « ما زال جبريل يوصيني بالجار؛ حتى ظننت أنه سيورِّثه» فندِم اليهودي وأسلم).اهـ.

وذكر ابن تيمية في كتاب الاستقامة (أن سهل بن عبدالله التستري - رحمه الله - كان له جار مجوسي، وكان في نفس البيت في الطابق الأعلى، فانفتحت فتحة في كنيف المجوسي، فكان يقع منها الأذى في دار سهل، فكان يضع كل يوم الجفنة تحت الفتحة، فينزل فيها الأذى، ثم يأخذ ذلك بالليل ثم يَطرحه بعيدًا، فمكث -رحمه الله- على هذا الحال زمانًا طويلاً إلى أن أتى سهلاً المَرَض، فاستدعى سهل جاره المجوسي، وقال له: ادخل ذلك البيت وانظر ما فيه فرأى الفتحة والقذر، فقال: ما هذا؟ قال سهل: هذا منذ زمن طويل يسقط من دارك، وأنا أتلقاه بالنهار وألقيه بالليل، ولولا أنه حضرني أجلي ما أخبرتك، وأنا أخاف أن لا تتّسع أخلاق غيري لذلك، فافعل ما ترى، فقال المجوسي: أيها الشيخ، أنت تعاملني بهذه المعاملة منذ زمن طويل، وأنا مقيم على كفري، أيها الشيخ، مد يدك، فأنا أشهد أنْ لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ثم مات سهل - رحمة الله عليه). اهـ.

وقارن أيها القارئ الكريم بين صبر هؤلاء على هذه الابتلاءات وبين ما يحدث في هذا الزمن فنجد من يؤذي جاره، فينزل عليه القذى والقذر من حمامه، ولا يستجيب لرجاء جاره، بل ويستمتع بتعذيبه، فلا يجد المسكين مفرًا من بيع سكنه والبحث عن سكن آخر!!

يَلُومُونني إذ بِعتُ بالرُّخْص منزلاً
ولم يَعرفوا جارًا هناك يُنَغِّصُ
فقلتُ لهم: كفُّوا الملامَ فإنّها
بجيرانها تَغْلو الديارُ وتَرْخُصُ

النوع الثالث: الصبر على الطاعات:

وقد كان الإيمان باليوم الآخر عاملاً من عوامل الصبر على الطاعات، ومن أجلّها الجهاد في سبيل الله، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (أن عمَّه غابَ عن بدرٍ، فقال: غِبتُ عن أول قتال النبيِّ صلى الله عليه وسلم، لئنْ أشهَدَني اللهُ مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم لَيَرَيَنَّ اللهُ ما أُجِدُّ، فلَقِيَ يومَ أُحُدٍ، فهَزَمَ الناسَ، فقال: اللهم إني أعتذرُ إليك مما صنعَ هؤلاء؛ يعني: المسلمين، وأبرأ إليك مما جاء به المشركون، فتقدَّمَ بسيفه فلَقِيَ سعدَ بنَ معاذ، فقال: أين يا سعدُ، إني أجدُ ريحَ الجنة دون أُحُد، فمضى فقتَلَ، فما عُرف حتى عرَفَتْه أختُه بشَامَة، أو ببَنانه، وبه بضعٌ وثمانون طعنةً وضربةً سيفٍ ورميةٍ بسهم) (رواه البخاري).

فهذا أنس بن النضْر صبر على تلك الفريضة العظيمة لإيمانه باليوم الآخر، بل لقد وجد ريح الجنة دون أُحد، والبعض من المسلمين الآن لا يصبر على هذه الطاعة العظيم، بل ويعادي من يقوم بها في مواجهة أعداء الدين من الذين احتلوا ديار المسلمين !!

النوع الرابع: الصبر عن المعاصي:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: (إنَّ رجُلاً قعدَ بينَ يدَي رسول الله صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ فقال: يا رسولَ الله، إنَّ لي مَملوكينَ يُكذِّبونَني ويخونونَني ويعصونَني، وأَشتُمُهم وأضربُهم فكيفَ أنا منهُم؟ قال: يحسَبُ ما خانوكَ وعصوكَ وكذَّبوكَ وعقابُكَ إيَّاهم، فإن كانَ عقابُكَ إيَّاهم بقدرِ ذنوبِهم كانَ كفافًا، لا لَكَ ولا عليكَ، وإن كانَ عقابُكَ إيَّاهم دونَ ذنوبِهم كانَ فضلاً لَكَ، وإن كانَ عقابُكَ إيَّاهم فوقَ ذنوبِهم اقتُصَّ لَهم منكَ الفضلُ. قال: فتنحَّى الرَّجلُ فجعلَ يبكي ويَهتِفُ، فقالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: أما تقرأُ كتابَ اللَّهِ (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) الآيةَ. فقالَ الرَّجلُ: واللَّهِ يا رسولَ اللَّهِ ما أجدُ لي ولَهُم شيئًا خيرًا من مفارقتِهم، أُشهدُكَ أنَّهم أحرارٌ كلُّهم) (رواه الترمذي وصححه الألباني).

فهذا الرجل حينما ذكّره النبي صلى الله عليه وسلم باليوم الآخر وبعظم الحساب، بكت عينه وصبر عن معصية الظلم لمملوكيه، وأعتقهم لوجه الله تعالى، والبعض منا الآن لا ينزع يده من ظلم الآخرين، وما ذاك إلا لضعف إيمانه باليوم الآخر.

ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أحكام الصلاة

صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم

الحلقة الرابعة

قراءة القرآن بعد الفاتحة

د. حمدي طه

تكلمنا في العدد السابق على قراءة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النوافل لنستخلص مما ذكرناه الهدي العام لقراءته صلى الله عليه وسلم في الصلاة، ونكمل في هذا العدد بيان الأحكام العامة المستفادة من قراءة النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة بأدلتها التفصيلية.

سنذكر عرضًا إجماليًا لأهم المسائل المتعلقة بالقراءة، ونبيّن الراجح فيها ودليل كل مسألة.

قال المالكية والحنابلة: يُندب إكمال سورة بعد الفاتحة، فلا يُقتصر على بعضها، ولا على آية أو أكثر، ولو من الطوال، ويُكره تكرير السورة عند الجمهور في الركعتين، بل المطلوب أن يكون في الثانية سورة غير التي قرأها في الأولى، تالية لها في الترتيب، فلا يقرأ في الثانية (سورة القدر) بعد قراءته في الأولى (سورة البينة).

وقال الحنفية: لا بأس أن يقرأ سورة ويعيدها في الثانية.

ويندب عند الجمهور تقصير قراءة الركعة الثانية عن قراءة الركعة الأولى في الفرض، وقال أبو حنيفة وأبو يوسف: يندب تطويل الركعة الأولى في الفجر فقط. والفتوى على قول محمد كالجمهور بتطويل الركعة الأولى في كل الصلوات على الثانية؛ اتباعاً للسنة، رواه الشيخان في الظهر والعصر، ورواه مسلم في الصبح، ويُقاس غير ذلك عليه.

ويندب باتفاق الفقهاء أن يكون ترتيب السور في الركعتين على نظم المصحف، فتنكيس السور مكروه. ولا تكره قراءة أواخر السور وأوساطها؛ وجاز الجمع بين السورتين فأكثر في صلاة النافلة؛ أما الفريضة: فالمستحب أن يقتصر على سورة مع الفاتحة من غير زيادة عليها؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم هكذا كان يصلي أكثر صلاته. (الفقه الإسلامي وأدلته د. وهبة الزحيلي ٢/٧٣).

فائدة تأصيلية:

قبل أن نبدأ في بيان الأحكام المستفادة من قراءة النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة ينبغي أن نذكر بعض الضوابط والقواعد التي قررها أهل العلم والتي يجب مراعاتها عند التعامل مع النصوص بوجه عام ومع النصوص الواردة فيما نحن فيه بوجه خاص:

١- يجب جمع النصوص من القرآن الكريم والسنة الشريفة الواردة في المسألة محل البحث من مصادرها المعتبرة. وعدمُ الاقتصار على قسم من النصوص يراه الفقيه غالباً دليلاً كافياً على رأيه، وداعماً لاجتهاده، وترك ما سواه، وقد وجد ذلك بكثرة في بعض كتب المذاهب التي غالبًا ما يقتصر أصحابها على الأدلة التي تنصر مذهبهم، وقد تكون في بعض الأحيان أدلة ضعيفة لا تصلح للاحتجاج أصلاً، فضلاً عن معارضة الأدلة الصحيحة. (الجامع لأحكام الصيام لمحمود عبد اللطيف عويضة ٢/١).

٢- التثبت في صحة الدليل وثبوته، فالواجب الحذر من الأحاديث التي لا تقوم بها الحجة، فيجب معرفة الثابت منها عن النبي صلى الله عليه وسلم وغير الثابت، والاستدلال بالأحاديث الصحيحة وبالحسنة فقط، ولا بد من معرفة روايات الحديث وألفاظه؛ فإن بعضها يفسر بعضًا، وترك ما سواها من أحاديث ضعيفة على اختلاف أنواعها؛ حتى لا تعارض الأحاديثُ الصحيحة بالضعيفة. (معالم أصول الفقه للجيزاني ٢٦٢/١).

٣- لا يُلجأ إلى الترجيح إلا عند عدم إمكان الجمع بين هذه النصوص، وإعمال جميع النصوص المتعلقة بكل مسألة من المسائل، وعدَم إهمال أيٍّ منها، فإعمال الكلام أولى من إهماله؛ قاعدة فقهية مشهورة.

٤- الأصل في العبادات الحَظْر والمَنْع، حتى يقوم دليل على ثبوتها، وأنها من شرع الله - عز وجل -، ودليل ذلك: أن الله أنكر على مَن شرَعوا في دين الله ما لم يأذن به ؛ فقال - تعالى -: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾ (الشورى:٢١).. وثبت من

حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنه قال: « مَن عَمِلَ عملاً ليس عليه أمرُنا فهو رَدٌّ » (صحيح مسلم ١٧١٨)، وإذا كان مَردُودًا كان باطلاً وعَبثًا، يُنَزَّه اللهُ - عَزَّ وجَلَ - أن يُتَقَرَّبَ به إليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (١٦/٢٩): «تصرفات العباد من الأقوال والأفعال نوعان: عبادات يصلح بها دينهم، وعادات يحتاجون إليها في دنياهم، فباستقراء أصول الشريعة نعلم أن العبادات التي أوجبها الله أو أحبها لا يثبت الأمر بها إلا بالشرع، وأما العادات فهي ما اعتاده الناس في دنياهم مما يحتاجون إليه، والأصل فيه عدم الحظر، فلا يُحظر منه إلا ما حظره الله سبحانه وتعالى؛ وذلك لأن الأمر والنهي هما شرع الله، والعبادة لا بد أن تكون مأموراً بها، فما لم يثبت أنه مأمور به كيف يحكم بأنه عبادة ؟! وما لم يثبت من العادات أنه منهي عنه كيف يحكم على أنه محظور؟! ولهذا كان أحمد وغيره من فقهاء أهل الحديث يقولون: إن الأصل في العبادات التوقيف. اهـ.

قلت: ولهذه القاعدة تفصيلات كثيرة مهمة ليس موضع بسطها الآن، ولعلنا نعرض لهذه التفصيلات فيما بعد.

٥- الأصل تساوي الفرض والنَّفْل في جميع الأحكام إلا بدليل، فكل ما ثبت في النَّفْل ثبت في الفرض، وكل ما انتفى في النَّفْل انتفى في الفرض إلا بدليل.

ويدل لهذا الأصل: أن الصَّحابة رضي الله عنهم لما حَكَوا أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم كان يُوترُ على راحلته قالوا: غير أنه لا يُصلي عليها المكتوبة. فلما حَكَوا أنه يوتر، ثم قالوا: غير أنه لا يُصلي عليها المكتوبة، دَلَّ ذلك على أنَّ المعلومَ أنَّ ما ثَبَتَ في النَّفل ثبتَ في الفرض؛ ولأنهما عبادتان من جنس واحد، والأصل اتفاقهما في الأحكام. (الشرح الممتع محمد بن صالح العثيمين ٢٥٧/٢).

٦- إن الأصل في الأقوال والأفعال العموم؛ إلا إذا دل الدليل على التخصيص، فأمرُ الشارع للواحد أمرٌ لجميع أفراد الأمة؛ إذا خاطب الشارع الحكيم فردًا من الأمة أو حكم عليه بحكم يكون هذا الحكم عامًا في الأمة إلا إذا قام دليل التخصيص أو يكون خاصًا بذلك المخاطب. (تمام المنة في التعليق على فقه السنة للألباني ٤١/١).

هذه أهم الأمور التي ينبغي مراعاتها في المسائل محل البحث، ولنشرع في بيان هذه المسائل:

١- هل ينبغي قراءة سورة كاملة بعد الفاتحة في الصلاة أم يقرأ ببعض سورة؟!

بتتبع الأحاديث الواردة نجد أن أغلب حال النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قراءة السورة كاملة، فينبغي للإنسان أن يقرأ سورة كاملة، لا بعض السورة، ولا آياتٍ من أثناء السُّورة؛ فيبدأ القراءة من أول السورة وينهي قراءته بنهاية السورة، وأطلقه ابن القيم في «زاد المعاد»؛ حيث قال: «وأمَّا قراءة أواخر السُّور وأواسطها فلم يُحفظ عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم ». ولكن يجاب عن ذلك بأنه ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ في ركعتي الفجر في الأولى منهما (قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا) الآية التي في البقرة، وفي الآخرة (ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ)) وفي رواية: (كان يقرأ في ركعتي الفجر (قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا) والتي في آل عمران (تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ)) رواهما أحمد ومسلم (الشرح الممتع لمحمد بن صالح العثيمين ٧٣/٢).

فقد دل هذان الحديثان على أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يقرأ آية واحدة فحسب في الركعة الواحدة.

٢- هل يصح أن يصلي بالآية الواحدة أكثر من ركعة أو يكرر الآية في الركعة الواحدة؟

ويصح أن يصلي بالآية الواحدة أكثر من ركعة، ويدل لذلك أنه (قام - صلى الله عليه وسلم - ليلة بآية يرددها حتى أصبح وهي: (إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ) (المائدة: ١١٨)، بها يركع وبها يسجد وبها يدعو، فلما أصبح قال له أبو ذر رضي الله عنه: يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها، وتدعو بها، وقد علمك الله القرآن كله، لو فعل هذا بعضنا لوجدنا عليه. قال: (إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئًا) (رواه النسائي وابن خزيمة).

فالأمر إذن موسَّع، يبدأ بقراءة آية واحدة وينتهي بمقدار ما يطيق المسلم قراءته من القرآن، وقد ذكرنا أن الأصل: أن ما ثَبَتَ في النَّفل ثَبَتَ في الفرض؛ إلا بدليل، وعلى ذلك يكون المستحب قراءة السورة كاملة، ولا بأس في الاقتصار على بعض السورة؛ لثبوته عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وإن ما ذهب إليه بعض الأئمة (من أن قراءة بعض السورة خلاف السنة) غير صحيح.

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان

٥

عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وخاتم النبيين ورحمة الله للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد رأينا في اللقاء السابق كيف اعتمدت الحركة الصهيونية العالمية النصرانية في سعيها لإقامة دولة إسرائيل عقيدة منسوبة للتوراة، وكيف استغل اليهود ذلك في التأثير على النصارى الذين يؤمنون بالعهد القديم كجزء أساس من كتابهم المقدس، وخصوصًا بعد ظهور البروتستانت الذين يؤمنون بحرفية التوراة، وكيف ساعد اكتشاف أمريكا وهجرة البروتستانت إليها في ترسيخ هذا المفهوم حتى تأثر به رؤساء أمريكا فضلًا عن غيرهم ولا يخفى على مطلع اتساع اللوبي اليهودي وتعاونه مع الإنجيليين الأمريكان حتى صار النفوذ اليهودي يؤثر في اختيار الرئيس الأمريكي، ولا يهم انتماؤه الجمهوري أو الديمقراطي طالما سيخدم قضية إسرائيل. هذا فضلًا عن اتساع النفوذ اليهودي في الاقتصاد والإعلام بأشكاله المختلفة.

ويكفي أن تعلم أن العين الموسومة على الدولار فوق قمة الهرم هي إحدى رموز الماسونية اليهودية، والتي ترمز للدجال، وعندما نتحدث عن أثر التوراة في السياسة الأمريكية والأوروبية والإسرائيلية فنحن لا نغفل جانب الانتهازية والعقلية الاستعمارية التي تحكم تصرفات الغرب وأمريكا، وكذلك نعلم أن اليهود أشبه الناس بالشيطان على الأرض، وقد لعنهم الله على لسان داود وعيسى ابن مريم، ولعنهم في القرآن الكريم، وهم لا يتورعون عن فعل أي شيء لتحقيق مصالحهم المادية، ومنها استخدام التوراة المحرفة وهم يعلنون ذلك صراحة دون مواربة؛ فتلمودهم الذي كتبوه بأيديهم يقول: «يجب على كل يهودي أن يسعى لأن تظل السلطة على الأرض لليهود دون سواهم، وقبل أن يحكم اليهود نهائيًا باقي الأمم يجب أن تقوم الحرب على قدم وساق، ويهلك ثلثا العالم، وسيأتي المسيح الحقيقي ويحقق النصر القريب، وحينئذ تصبح الأمة اليهودية غاية في الثراء؛ لأنها تكون قد ملكت أموال العالم جميعًا ويتحقق أمل الأمة اليهودية بمجرد قيام إسرائيل (من كتاب الخلفية التوراتية للموقف الأمريكي، لإسماعيل كيلاني ص٨٩، المكتب الإسلامي سنة ١٩٨٩م). حتي تكون هي الأمة المتسلطة على باقي الأمم عند مجيء المسيح».

انظر فيم يفكر اليهود؟! تفكيرهم مادي بحت، ألم يعبد أجدادهم العجل الذهبي من دون الله؟!

واستطاع اليهود بدهائهم ومكرهم أن يحكموا العالم من خلف الستار؛ تمهيدًا لحكمه علانية كما يدعون عند نزول المسيح الذي ينتظرونه وهو الدجال- إن شاء الله- والذي سيتبعه سبعون ألف منهم من يهود أصفهان حين ينزل هناك في بداية نزوله، أما الذي سينزل في دمشق فهو عيسى ابن مريم عليه السلام، وسيأتي تفصيل ذلك.

وقد أشرت في مقالي السابق أن أهل الباطل يعملون بجد لتحقيق باطلهم كما يعتقدون، ويجندون أهل الأرض لمشروعهم ويتفقون رغم تفرقهم، أما أهل الحق المسلمون فيتفرقون رغم اتفاقهم ويهملون حقهم الصريح الصحيح، وإذا كان قادة أمريكا وإسرائيل ومن شايعهم لا يستنكفون عن الانتساب إلى عقيدة التوراة والعمل لها، فإن كثيرًا من حكام المسلمين يستنكفون من الإسلام وأهله بل يحاربون الإسلام

وأهله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ما علاقة واقعنا بالحديث عن نزول عيسى عليه السلام؟

ألا ترى أن إقامة إسرائيل في فلسطين هو تمهيد لنزول عيسى كما يعتقدون؟ وكما بينا في المقال السابق، وبالتالي فإن ما يحدث وحدث في العراق وفي فلسطين وفي لبنان وفي سوريا وتونس ومصر من أجل الحفاظ على أمن إسرائيل وبقائها، فمحاصرة مصر اقتصاديًا ومائيًا وعسكريًا، واختراقها اجتماعيًا، وبث الفتنة والوقيعة، ونشر البغضاء بين أفراد المجتمع حتى تحدث القلاقل والحروب وتنتشر الفوضى الخلاقة التي تتبناها أمريكا والتي لا تثمر إلا الفوضى ثم الفوضى.

ونحن لا نشك لحظة أن اليهود يستخدمون الدين للعلو والسيطرة؛ لأنهم كما أخبرنا الله يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله وهم يستخدمون الدهاء والمكر، ويغررون بكثير من النصارى ويضلونهم، ومع ذلك فمن الغرب وأمريكا من التقت مصالحه مع اليهود ووجد ضالته فيهم للحفاظ على مصالحه، ولاستمرار دفق البترول والمواد الخام، وإشباع رغبته في السيطرة والاستبداد، وأحسن القول قول ربي حين قال سبحانه: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، وللأسف هذا الصنف الأخير هو الذي بيده القيادة الآن وهو الذي يكذب على الله، أفلا يكذبون على الناس؟ بلى يكذبون ويعتبرون غيرهم خدمًا لهم، هذا وقد صنفهم القرآن إلى قسمين أميين وهم الكثرة وقادة في التحريف، فقال عن الصنف الأول: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]، هؤلاء ضالون وقعوا فريسة لهؤلاء الذين قال الله عنهم: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

الفرق بين عقيدة اليهود والنصارى في المسيح:

هناك فروق جوهرية بين اليهود والنصارى في اعتقادهم في المسيح في مولده وحال حياته وعند رفعه وحال نزوله، وحتى لا نكرر كلامًا سبق أن ذكرناه سأقف الآن عند موقفين نحتاج إليهما الآن:

الأول: موقف اليهود من رفعه.

الثاني: موقفهم عند نزوله.

بالنسبة لاختلاف اليهود والنصارى في المسيح حين رفعه الله إليه، وهذا اعتقاد المسلمين، أما اليهود فيدعون أنهم قتلوه وصلبوه لأنهم لا يؤمنون أنه رسول الله، بل يثير الفتنة ويستحق القتل وهكذا أقنعوا الحاكم الروماني حتى قتل عيسى وصلب كما يزعمون، والنصارى يعتقدون أن اليهود قتلوا إلههم أو ابن إلههم ودمه في أعناقهم إلى يوم القيامة.

والأمر الثاني: وهو نزول عيسى آخر الزمان فيعتقد اليهود والنصارى أنه من أبناء داود وسينزل في آخر الزمان في القدس لكنهم يختلفون في النتيجة، فالنصارى يرون أنه سيكون لهم وينصرهم ويقتل ما سواهم من اليهود والمسلمين وغيرهم.

واليهود يرون أنه سيكون لهم ويقتل ما عداهم من النصارى والمسلمين وغيرهم.

مناقشة هذين الأمرين:

من المفترض أن تكون العداوة قائمة ومستمرة إلى يوم القيامة بين اليهود والنصارى، وأن يُبغض النصارى اليهود بغضًا أبديًا؛ لأنهم قتلوا إلههم ومعبودهم وكفروا به، ولذلك سيأتي في آخر الزمان ليقتلهم، وقد كانت فعلاً العداوة قائمة حتى بداية القرن السادس عشر الميلادي فماذا حدث؟

أقول: كانت العداوة مستمرة بين الطائفتين وكانت الكنيسة البابوية في روما تقود هذه العداوة وتستمر في لعن اليهود وينسبون إليهم كل شر، ومن طرائف هذا العداء أن وباء خطيرًا انتشر في أوربا فقتل ثلث سكان القارة وأطلقوا عليه «الطاعون الأسود»، فأعلن بابا الفاتيكان في منشور رسمي عُمم في كافة أنحاء أوربا أن سبب هذا الطاعون هم اليهود، وقامت حملات شديدة تزعمها البابا لتنظيف المجتمعات الأوربية من اليهود، واستمرت هذه الحملة ثلاثة قرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر للميلاد، لكن هذه العداوة تتلاشى شيئًا فشيئًا بعد ظهور المذهب البروتستانتي واكتشاف أمريكا، وأخذ البروتستانت يعملون بدهاء واليهود من خلفهم ولعل البروتستانت صنيعتهم حتى أعلنت الكنيسة البابوية مؤخرًا براءة اليهود من دم المسيح، وتغلبت المصالح المادية على العقيدة الدينية لأنها هشة.

أما بالنسبة لمسألة اختلافهم فيما سيفعله المسيح حال نزوله فجمعهم الحقد والحسد ضد المسلمين، واتفقوا على تأجيل الحديث والخوض في تفاصيل نزول المسيح والتعاون والاهتمام لتهيئة الأجواء لنزوله، فإذا نزل فسنرى هل هو الذي يؤمن به اليهود أم النصارى؟

وللحديث بقية إن شاء الله وإلى لقاء لنجيب على سؤال مهم: هل لليهود حق ديني شرعي في فلسطين؟

والحمد لله رب العالمين.

فتاوى



من فتاوى الأزهر الشريف

تحرير قبلة الصلاة

س: بنى فاعل خير مسجدا بناحية محتاجة لوجوده ليتقرب إلى الله تعالى وأنفق في تشييده وفخامته كل ثروته وكان حرر قبلته أحد المهندسين.

وفي يوم افتتاحه حضر فيه فضيلة رئيس المحكمة الشرعية، وبعد أن تحرى وحقق بنفسه صحة اتجاه قبلته بواسطة البوصلة التي أحضرها معه خصيصا لذلك، أجاز الصلاة فيه وأداها فضيلته وكثير من العلماء والمتفقهين مرارا عديدة، ثم جاء مهندس آخر ادعى أن بالقبلة انحرافا لا يخرجها عن الاتجاه الحقيقي، فعلى فرض وجود ذلك الانحراف مع ما في الدين الحنيف والشريعة السمحاء من اليسر أفلا تكون الصلاة فيه صحيحة أو يغلق وتتعطل فيه الشعائر الدينية؟

الجواب: اطلعنا على هذا السؤال ونفيد بأنه يشترط لصحة الصلاة لمن لم يكن مشاهدا للكعبة إصابة جهة الكعبة، وجهتها هي التي إذا توجه إليها الإنسان يكون مسامتا للكعبة أو لهوائها تحقيقا أو تقريبا، ومعنى التحقيق أنه لو فرض خط من تلقاء وجهه على زاوية قائمة إلى الأفق يكون مارا على الكعبة أو هوائها، ومعنى التقريب أن يكون ذلك منحرفا عن الكعبة أو هوائها انحرافا لا تزول به المقابلة بالكلية بأن يبقى شيء من سطح الوجه مسامتا لها أو لهوائها.

وعلى ذلك فمتى كان المصلي في هذا المسجد غير منحرف عن القبلة انحرافا تزول به المقابلة بالكلية بل يبقى شيء من سطح وجهه مسامتا لها أو لهوائها صحت صلاته وإلا فلا.

هذا والله سبحانه وتعالى أعلم. [المفتي: عبد المجيد سليم]

صلاة الجمعة خلف المذياع غير جائزة

س: يوجد بالناحية جامع بدون إمام ولا مقرئ، فهل يجوز سماع القرآن والخطبة من جهاز الراديو وتكون الصلاة بعد الخطبة؟

الجواب:

إنه ورد في الحديث كما رواه البخاري، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (صلوا كما رأيتموني أصلي) ولم يصل عليه السلام الجمعة إلا في جماعة وكان يخطب خطبتين يجلس بينهما كما رواه البخاري ومسلم، ولذا انعقد الإجماع على أنها لا تصح إلا بجماعة يؤمهم أحدهم كما ذكره الإمام النووي في المجموع، وقال ابن قدامة في المغني: إن الخطبة شرط في الجمعة لا تصح بدونها، وانعقد إجماع الأئمة الأربعة على ذلك، وعلى هذا لا تصح صلاة الجمعة في هذه القرية المسئول عنها بدون إمام ولا خطبة ولا يكفي في ذلك سماع الخطبة وحركات الإمام من المذياع والله أعلم. [المفتي: حسنين محمد مخلوف].



فتاوى

من فتاوى المركز العام

حكم التهرب من دفع قيمة تذاكر المواصلات العامة

س١: ما حكم من ركب القطار ولم يقطع تذكرة؟

الجواب: لا يجوز أن يتعمد الركوب دون أن يقطع التذكرة من المكان المخصص لذلك إلا من عذر، فإذا أتاه المحصل في القطار دفع إليه ثمن التذكرة وأخبره بالمكان الذي ركب منه، فإن لم يأته المحصل ونزل فعليه أن يقطع من محطة وصوله تذكرة ثم يتلفها. وبذلك تبرأ ذمته.

على المرأة أن تجتهد في بر زوجها وطاعته !!

س٢: زوجة لا تمكن زوجها من نفسها، فما حكم ذلك؟

الجواب: يجب على الزوجين أن يعلما حرص الإسلام على استقرار الحياة الزوجية وخلوها من المشاكل التي تعكر الصفو، ولذلك شرع لكل منهما على صاحبه حقوقا يكفل أداؤها السعادة الزوجية، قال تعالى: «ولهن مثل الذي عليهم بالمعروف»، قال النبي صلى الله عليه وسلم:ألا إن لكم على أزواجكم حقا، ولأزواجكم عليكم حقا.ومن أعظم حقوق الزوج حق الفراش،ولذلك شدد النبي صلى الله عليه وسلم فيه، فقال: إذا دعا الرجل زوجته لحاجته فلتأته وإن كانت على التنور.[صحيح الترمذي ١١٦٠]، وقال صلى الله عليه وسلم:إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلم تأته فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح[متفق عليه].

فعلى المرأة أن تجتهد في بر زوجها وطاعته، وأن تلبي له حاجته، وعلى الرجل أن يراعي ظروف امرأته وأن يعذرها حين تكون مرهقة أو متعبة، وبهذا التفاهم تستقر حياتهم، وتدوم ألفتهم.

موضع دعاء الاستخارة

س٣: متى يقال دعاء الاستخارة، هل بعد السلام أم قبل السلام؟

الجواب: الأمر في ذلك واسع، وإن كان بعد التشهد وقبل السلام أولى. وبهذه المناسبة نقول للسائل الكريم: اعلم أنه لا علاقة للاستخارة بالرؤى والأحلام، وإنما إذا استخرت ربك، فشرح صدرك للأمر فتوكل على الله، وإن وجدت ضيقًا في صدرك وانقباضا فلا تقدم عليه. علمًا بأن انشراح الصدر إنما هو شيء يطمئن إليه القلب، لكن لا علاقة له بتحديد وتقرير الخير والشر في المسألة.

هل الرجال يكفرون العشير؟

س٥: هل الرجال تكفر العشير مثل النساء ؟

الجواب: كفران العشير معناه إنكار الإحسان السابق على كثرته لسيئة تكون من المحسن، وهو يكون من الرجال كما يكون من النساء، ولكنه في النساء أكثر، ولذلك خصهن بالذكر.

هل كان نبي الله نوح رسولا للكافة أم للخاصة ؟

س٦: ورد أن من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم انه بُعث إلى الناس كافة، وكان النبيُّ يُبعث لقومه خاصة، فهل سيدنا نوح عليه السلام بُعث لقومه خاصة أم للناس كافة؟

الجواب: عموم البعثة من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم كما في الحديث، فلم يبعث نبي إلى الناس كافة غيره صلى الله عليه وسلم، وكل نبي قبله كان يبعث إلى قومه خاصة، ونوح عليه السلام أرسل إلى قومه بدليل قوله تعالى: «إنا أرسلنا نوحا إلى قومه»، ونحوها من الآيات.



سارع أخي المسلم وأختي المسلمة

بالمشاركة بجزء من مالك ومن الزكوات أو الصدقات لنشر التوحيد من خلال المشاركة في الأعمال التالية:

طباعة كتيب يوزع مع مجلة التوحيد مجانًا تتكلف النسخة خمسة وسبعين قرشًا .. يطبع من كل كتيب مائة وخمسون ألف نسخة.

نشر تراث الجماعة من خلال طبع المجلة وتجليد أعداد السنة في مجلد واحد وذلك لعمل كرتونة كاملة ٣٨ سنة من المجلة.

دعم مشروع المليون نسخة من مجلة التوحيد - نسخة من المجلة لكل خطيب من خطباء الأوقاف والأزهر تصله على عنوانه.

نحن بانتظاركم .. يمكنكم المشاركة ودعم ذلك بعمل حوالة أو شيك مصرفي على بنك فيصل الإسلامي.

.. فرع القاهرة حساب رقم ١٩١٥٩٠ باسم مجلة التوحيد.

الآن

مفاجأة سارة



موسوعة التوحيد

ببلاش

- بشرى سارة لإدارات الدعوة في فروع أنصار السنة بأنحاء الجمهورية .
- الموسوعة العلمية والمكتبة الإسلامية في شتى العلوم ، أربعون عاماً من مجلة التوحيد .
- أكثر من ٨٠٠٠ بحث في كل العلوم الشرعية من مجلدات مجلة التوحيد .
- استلم الموسوعة ببلاش بدون مُقَدَّم ؛ فقط ادفع ٧٥ جنيهاً بعد الاستلام على عشرة أشهر .
- من يرغب في اقتنائها فعليه التقدم بطلب للحصول عليها من إدارة الدعوة بالفرع التابع له أو من خلال قسم الاشتراكات بمجلة التوحيد بطلب مُزَكًّى من الفرع .
- علماً بأن نموذج طلب الشراء والإقرار المرفق به من قبل الفرع موجود على موقع أنصار السنة وصفحة الفيسبوك الخاصة بكل من رئيس التحرير و صفحة مجلة التوحيد .
- هدية لكل من يرغب في اقتناء كرتونة المجلدات عبارة عن فهرس عام للمجلة وفهرس موضوعي يسلم بعد طبعه للفروع والمشتركين .

ومفاجأة أخرى
المجلد الجديد لعام ١٤٣٣ هـ
موجود الآن؛ سارع بالحصول عليه بـ٢٥ جنيها فقط



23936517